٤٨

مجلة
روايات أحلام

فراشة المحبة

لا تقل وداعًا

مجلة روايات أحلام

فراشة المحبة

لا تقل وداعا

«كاميرون رجل خطير كتمر في أدغال. إنه مخلوق يخفي تحت واجهته الجميلة نواياه ضد ضحيته، ضدها هي. كادت عندما خفق قلبها تلك الخفقة، تغرق في دفق تيرانه الدافئة.. وكانت ستموت بسعادة بين ذراعيه.

ارتجفت غلاديس رغم حرارة الشمس الحارقة.. أهذا ما تحسّ به ضحية النمر في اللحظة الأخيرة؟ أهناك نوع من الهوى الأسود الأعمى يربط بين المفترس وفريسته؟».

كادت خفقات قلب غلاديس تنسيها الخطر الذي وقعت فيه مع أنها بين يدي خاطف خطير لا يتورع عن القيام بشيء حتى القتل للوصول إلى مآربه.

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦د.	مصر ٤ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١,٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ب.	العراق

١ ـ البديلة

اهتزت طائرة البوينغ بلطف وهي تحطّ على أرض مدريد، مدينة الملوك الذين كادوا يحكمون العالم، منذ توحدت الممالك الصغيرة بزواج فرديناند الخامس بإيزابيلا الأولى..

ضغطت غلاديس هاردويك جبهتها على زجاج النافذة الصغيرة، تحاول أن تلمح شيئاً من خلال الغيوم التي بانت مع شروق الشمس.. ولكن سرعان ما تلاشى تأثرها وحل مكانه الوجل. إنها أول رحلة لها إلى اسبانيا.. بل إنها رحلتها الأولى إلى أي مكان وربما الأخيرة. فقد ينتهي بها المطاف في سجن اسباني، أو في أي مكان يضعون فيه من يحمل جوازاً مزوراً.

الجواز في الواقع ليس مزيفاً، بل هو غش بحد ذاته. وإن لم يكن غشاً فهو غير قانوني بالتأكيد، فجواز السفر القابع في أسفل حقيبة يد غلاديس هو لربة عملها، جوستين يورك. وليس الجواز فقط لغلاديس، بل الحقيبة التي تحملها والثياب التي ترتديها.. بالأمس القريب كانت سكرتيرة جوستين الخاصة، وهي اليوم جوستين يورك نفسها، وريثة ثروة يورك الخيالية، الفتاة المتخصصة في خلق عناوين الصحف في الفارتين بطيشها.

كيف أقنعتها جوستين بهذا التهور؟ الآن تعرف كيف.. فجوستين التي عرفتها في الأشهر الأربعة الماضية، ناعمة، قوية الإرادة. قد ابتدعت هذه الخطة في اللحظات الأخيرة، وأقنعت غلاديس بها دون أن

تتيح لها مهلة للتفكير. فقد أظهرت لها الخطة في قالب بسيط، ذكي ومغري، جعل غلاديس لا تدرك ما وافقت عليه إلا بعد فوات الأوان.

كان الجميع حتى الآن يؤمن بأنها جوستين يورك، فمضيفات الدرجة الأولى في الطائرة كن يبتسمن لها ويبادينها بالآنسة يورك. وتقدم الطيار بنفسه ليلقي عليها التحية، متمنياً لها رحلة سعيدة. وما دام أنهم جميعاً لا يعرفونها شخصياً فليس بينهم من قد يلقي نظرة على جواز سفرها، مقارناً بين الصورة التي فيه وبين غلاديس ذات العينين الخضراوين النجلاوين، والشعر القرفي الفاتح الأجعد. غير أن وجه غلاديس لا يتناقض كثيراً مع وجه جوستين ذات العينين النجلاوين البنيتين، ومع شعرها البني الشبيه بشعر غلاديس.

كانت جوستين قد قالت لها ضاحكة:

ـ لن يحاول أحد المقارنة بين وجهك وبين الصورة، كما أن الناس عادة لا يظهرون في الواقع كما في الصور، هذا إلى أنك ستضعين نظارة كنظارتي وستقصين غرتك كما أقصها تماماً. وإن غيرت تسريحة شعرك وارتديت ملابسي، فستبدين أختي التوأم. فدعك من هذا القلق، أنت ذاهبة إلى اسبانيا، أرض الخيال والحب.. حيث يعتقد كل ذكر تجاوز المراهقة أنه دون جوان.

ـ لكن هذا جنون جوستين!

ـ بكل تأكيد جنون! ألم تقومي بعمل مجنون من قبل؟

ـ نعم! إنما ليس بهذا القدر من الجنون..

راقبت الغيوم تتفرق كاشفة عن وجه المدينة العريقة.. عندما ينشأ المرء ويترعرع في مزرعة بسيطة في قلب منطقة زراعية، هي عالم العمة وزوجها، اللذين يعتقدان أن البهجة في الحياة تبدأ وتنتهي في السوق الموسمية السنوية، لا يكون أمامك مجال للقيام بأي عمل مجنون غير عادي... وكانت حتى بعد أن انتقلت إلى لندن، مشغولة بالمحافظة على جسدها وروحها، حذرة من ارتكاب فعل مجنون. حتى كان يوم

استجابت فيه إلى إعلان عن عمل تبين فيما بعد أنه مع جوستين يورك.

ـ استرخي غلاديس وتمتعي بالرحلة. ست ساعات من الترف وعشر دقائق من ركوب سيارة أبي الكاديلاك الفخمة...

ـ وماذا عن السائق؟ سيعرف أنني لست أنت..

ـ إنه سائق جديد، لن يعرفك. إنك لن تشعري إلا وأنت في الفيلا التي سأكون قد سبقتك إليها...

ـ أجل. ولكنك...

ضحكت جوستين:

ـ سأكون هناك بعد وصولك بخمس دقائق، فالدرجة الثانية في الطائرة تحط في الوقت نفسه مع الدرجة الأولى.. عندما أصل مع دان سأشرح كل شيء لأبي. أريد أن أقوم مرة واحدة في حياتي بما أرغب فيه. أعني أنني أحب دان، وأريد من أبي أن يحبه أيضاً. أريدهما أن يتقابلا بعيداً عن ضجيج الصحفيين. لقد تمكن حتى الآن من الابتعاد عن عدسات المصورين.. والفضل لك. كنت متعاونة غلاديس.. وما كان لنا أن نحب بعضنا لولاك.

حسناً.. سنجرب.. وها هي الآن تتناول حقيبة جوستين الصغيرة الفاخرة من المضيفة، وتضع حقيبة يد جوستين الفاخرة تحت إبطها.. وتغادر الطائرة.

تنفست بعمق قبل أن تخطو خطوة واحدة. كانت الإشارات التي تشير إلى قسم الجوازات تقفز عن الجدار أمامها عند كل خطوة. أخيراً أبطأت خطواتها، فقد تجاوزها رجل قصير يحمل حقيبة ملابس أكبر منه متمتماً «إسكوزي».. وتراجعت غلاديس إلى الوراء تسمح لامرأة تحمل طفلاً اللحاق بالرجل... هيا.. فليتقدم الجميع أمامي.. لا بأس في هذا.. لكن تأخير المواجهة لن يساعدها في الواقع.. ترى هل ستكون تعيسة الحظ فيصل ركاب الدرجة السياحية ويحيطون بها، فتصبح هي وجوستين جنباً إلى جنب، تمسك كل منهما بجواز الأخرى! تراءت لها

في تلك اللحظة صورة مخيفة. تخيلت وجه المفتش ينقل بصره من صورة مخدومتها إلى وجهها، ومنه إلى وجه مخدومتها في محاولة منه لمعرفة صاحبة الصورة التي في الجواز.

وعندما بدأ العرق يتصبب من يدها، تذكرت ما قالته لها جوستين يوماً:

ـ فلترتد الملابس نفسها. ألم نقترض الملابس قبل الآن؟

نعم.. ولا... جوستين لم تقترض منها شيئاً.. ولِمَ تقترض؟ وملابسها تصل إليها من أفخم دور الأزياء، بينما ملابس غلاديس كلها تُشترى بأثمان بخسة! وقد حدث أن ارتدت غلاديس ملابس جوستين من قبل.. كان ذلك بعدما أعلنت جوستين لها أنها وقعت رأساً على عقب في حب دان، وأنها تكاد تموت طلباً لبعض الخلوة معه، وقد جرى يومذاك أن أقنعتها بالتنكر بزيها لخداع مراسلي الصحف، وقد طلبت منها أن تقصد البحيرة في قلب المدينة، حتى يتبعها الصحافيون. وذلك ليتسنّى لها التسلل لقضاء وقت هادىء على الشاطىء. ذاك المساء قالت جوستين لها بإثارة:

ـ شكراً.. شكراً لك. هذه هي المرة الأولى التي أستطيع فيها الهرب من عيون الصحافيين الفضوليين. ليتني أستطيع إبقاء الأمر على هذه الحال. إذا كنت تحسبين هؤلاء الصحافيين سيئين، فماذا ستقولين عن صحافيي اسبانيا؟

وكان هذا بداية هذا المشروع المجنون، .. الـ...

ها قد وصلت.. قسم الجوازات.. وها هي خفقات قلبها متسارعة مضطربة، كطبول مجنونة.

كانت قد قالت لجوستين حين ركبتا السيارة متجهتين إلى مطار لندن:

ـ ماذا لو كشفوا أمري؟

ـ إن كل ما سيفعلونه هو التمني عليك طيب الإقامة.

ـ ولنفترض العكس؟ فلنفترض أنهم ألقوا القبض علي؟ ولنفترض أنهم سجنوني؟ ولنفترض...

ـ أنا أستخدم جوازك يا غلاديس ومع ذلك لا أشعر بما تشعرين به من قلق.

ـ أجيبي عن سؤالي!

ـ لو حدث شيء، وهذا ما لن يحدث، فسيرسل أبي فريقاً من المحامين، وقبل أن تشعري ستكونين آمنة في قبلته. هل من أسئلة أخرى؟

ـ أجل... لماذا تستخدمين معتوهة مثلي؟

ـ لست معتوهة، ولست أستخدمك، أنت صديقتي، ومرافقتي الرومانسية...

اندفع صف المسافرين إلى الأمام، وازداد تنفس غلاديس سرعة.. فمهما قالت جوستين تبق الحقيقة واحدة وهي أن تبادل الجوازات والأسماء غير قانوني. لكن جوستين قالت غير ذلك، وحجتها أنهما لا تقومان بهذا بقصد التهريب.

تمكنت غلاديس الآن من مشاهدة وجه المفتش، لكنها ما عادت تشعر بغرتها على جبهتها بعد أن تسللت إلى ما تحت النظارة التي تضعها جوستين دائماً...

ـ بونجورنو سينوريتا.. كيف حالك اليوم؟

ابتلعت غلاديس ريقها بصعوبة وأجابت متلعثمة:

ـ بـ.. بخير.. شكراً.

فتح المفتش الجواز ونظر إليها.. فأحست أن قلبها توقف عن الخفقان..

ـ سينوريتا يورك.. هه.! أنت هنا في عمل، أم في سياحة؟.

ـ سيـ.. سياحة.

رفع نظره إليها:

- هل ستبقين في مدريد أم ستسافرين؟

- سأبقى في مدريد.

لو وصلت إلى فيلا يورك، فلن أغادرها أبداً..

ابتسم المفتش وأقفل الجواز، ثم رده إليها:

- تتشرف بلادي دوماً باستقبال النساء الجميلات.. تمتعي بوقتك سينوريتا.

كاد صدرها ينفجر ضحكاً، وقد استطاعت بصعوبة منعه من الظهور.. والله كانت جوستين على حق! إن هذا المرور أشبه بقطعة حلوى. لقد انتهى الأمر وبات بامكانها الاعتراف بأن ما جرى كان مصدر مرح وتسلية لها! إنها لا تقوى صبرا على رؤية جوستين لإخبارها بسهولة ما مر بها. لم يبقَ أمامها إلا عقبة واحدة، وهي الخروج إلى حيث يحتشد الصحافيون الراغبون في بعض الصور والقصص، ومنه إلى كاديلاك آل يورك. ولكن ماذا تفعل إن لم تجد السيارة بانتظارها؟

ها هم الصحافيون بانتظارها. كان أولهم يركض باتجاهها، وآلة التصوير تتطاير عن عنقه.. يا إلهي.. الأمر رهيب! كانوا يتدفعون إليها من حيث لا تدري، لقد حذرتها منهم جوستين عندما استخدمتها سكرتيرة، وقالت لها إن بعضهم يرشو الموظفين بغية نيل قصة.

بدأت السمكة تأكل الطعم، فقد راقبت صحفيين آخرين بطرف عينها يركضان نحوها، فسحبت نفساً عميقاً ثم خطت إلى الشارع. يا إلهي! ما أشد حرارة الجو! كانت جوستين قد أخبرتها بأن الصيف في اسبانيا كالصيف تحت مصابيح تدفئة. فموقع مدريد مكشوف وسط شبه الجزيرة، ومناخها الحار نهاراً يغدو بارداً ليلاً.

- سينوريتا.. هاي.. سينوريتا يورك.. انظري إلى هنا.. أعطنا ابتسامة.. سينوريتا برڤاڤور..

وانضم إلى الثلاثة رابع فخامس.. يا إلهي! ما هذه الوجوه التي تبدو شبيهة بوجوه رجال عصابات في فيلم أميريكي..

- آنسة يورك.. ما رأيك لو تعطينا تصريحاً؟ هل تقومين بزيارة والدك فقط؟ سمعنا أنك قد تقابلين شخصاً...

أدركت للمرة الأولى أن هؤلاء المراسلين جادون في عملهم. فهم لا يلعبون.. بل يكسبون قوتهم، ويوطدون سمعتهم كمراسلين. لقد أخبرتها جوستين قصصاً مرعبة عن المدى الذي قد يبلغه الصحافيون في سبيل التقاط صورة أو قصة.

أصبحت الآن محاصرة، وكأنها حبة سكر يتقاتل عليها النمل. رنت بعينها فرأت الرجلين المتجهمين اللذين شاهدتهما أولاً.. فأحست بالخوف ولكنها تخلصت من هذا الإحساس... أين هي السيارة؟ أمامها صف طويل من السيارات وما من كاديلاك بيضاء بينها، وما من سائق مرتد بزة رسمية.

- بونجورنو سينوريتا يورك.. برڤاڤور.. إننا فوتوغرفيا!

واندست كاميرا في وجهها، تومض، فارتدت إلى الخلف متمتمة:

- أرجو عذركم.. باروني.. لو تتركوني...

يا إلهي وكأنها في فيلم مزعج فيه فوضى وهمهمة وتشويش، وأصوات تصيح بها بالإسبانية والإنكليزية وأبواق سيارات تدوي في كل مكان... أحست أنها تكاد تختنق، ليس من ضغط الصحافيين فحسب، بل من دخان إطارات السيارات المحترقة. إن الازدحام في هذه المدينة يفوق ازدحام لندن.. كانت سيارات صغيرة وكبيرة، وتاكسيات ودراجات نارية، تتقاتل جميعها على موقف أو فسحة مرور.

أين هي الكاديلاك البيضاء؟ قالت جوستين.. آه.. ها هي في الصف الثالث، عالقة وراء سيارة أجرة محملة بالحقائب. إن باب السائق مفتوح، وهو واقف ينظر إلى ما حوله من فوق السيارة. لوحت له برعب، لعلمها أنه يفتش عنها، وصاحت:

- هاأنذا.. أنا هنا..

دفعها شخص بقوة، فالتفتت غاضبة:

ـ اسمع، ألا تنظر أمامك.. أرجوك.. أنا..

انحبست الكلمات في حنجرتها. فالرجلان الأسمران اللذان تبعاها من ممر الخروج، كانا يشقان طريقهما بين الصحفيين، وعلى وجهيهما ما يخيف، فهما كمن لا يتوانى عن ارتكاب أي شيء للحصول على قصة..

انطلقت الكاديلاك خارج الصف الذي كانت عالقة فيه، متجاوزة السيارات الباقية، وزمورها يدوي، كانت سيارة الأجرة قد انطلقت من أمامها إلا أنها توقفت في منتصف الطريق، تسده عن كل شيء خلفها.

لمست يد ذراعها، فشمت غلاديس رائحة الخل والثوم.

ـ سينوريتا يورك.

كان الصوت همساً متحشرجاً، علمت إنه لأحد الرجلين الأسمرين، فحاولت التخلص منه واندفعت نحو الكاديلاك خائفة.

فصاح خلفها ساخطاً:

ـ هاي.. هاي..

قال لها رجل ذو لكنة غريبة:

ـ ادخلي السيارة.

خنقتها مرة أخرى رائحة الخل والثوم في أنفاس الرجل، فصاحت تثبت أكعابها فوق الرصيف:

ـ هل أنت مجنون؟ اتركني!

ـ تحركي بسرعة سينوريتا أو...

ـ لن أتحرك بكل تأكيد.. هاي.. توقف عن هذا.. توقف...

منذ تلك اللحظة وما تلاها حدث كل شيء وكأنه يحدث في فيلم قديم. أحست غلاديس بقدميها ترتفعان عن الأرض، فرفست إلى الوراء بكل قوتها رفسة سمعت على إثرها شهقة حادة، خرجت من الرجل الواقف على يمينها، وهو الرجل الذي تنضح من فمه الرائحة الكريهة..

صاح بها الرجل الآخر: «كفى» واشتدت يده على ذراعها حتى

شهقت من الألم. فجأة، أصدر صوتاً غريباً كالغرغرة ابتعدت على إثره يده عن ذراعها ووقع على ركبتيه. فقد كانت قد رفسته رفسة أوقعته أرضاً. ولم تشعر إلا بالكاميرات تومض وبالناس يصرخون. فجأة.. وعلى حين غرة، ظهر لها رجل عريض المنكبين، مديد القامة، مرتد بزة رمادية، أبعد عنها المراسلين، ثم حملها بين ذراعيه وأسرع بها إلى الطريق. «إنه سائق سيارة آل يورك» أو على الأقل هذا ما اعتقدته.

ـ شكراً لك.. أنا..

اصطكت أسنانها بقوة حين رماها في مقعد السيارة الخلفي وصفق الباب خلفها. فانتفضت، ثم راحت تدلك فكها، وعندما استوى السائق إلى مقعده قالت له:

ـ لقد وصلت في الوقت المناسب.

ولكن ما إن انطلقت السيارة إلى الأمام، حتى ارتدت إلى الخلف. وحين لاحت سيارة الأجرة التي تسد الطريق أمامها، اتسعت عيناها ذعراً، ولكن ما هي إلا هنيهة حتى سمعت تحطم معدن، وصدمة حسية، حطمت مؤخرة سيارة الأجرة وفسحت المجال لانطلاق الكاديلاك التي راحت تسابق الريح، مبتعدة عن الجموع. نظرت غلاديس فوق كتفها ومبنى المطار يبتعد عن أنظارها، ثم حاولت ابتلاع الجفاف في حلقها، مستديرة إلى السائق، لتقول له بصوت منخفض:

ـ لا أعرف كيف أشكرك. قالت جو... صديقتي إنه سيكون هناك صحافيون يفعلون المستحيل للحصول على قصة، غير أن ما جرى الآن أمر ينافي أي منطق. إنهم مجانين!

انتظرت رد السائق ولكنها لم تسمعه. كان يصب اهتمامه على القيادة، كانت يداه المدثرتان بقفاز جلدي.. تقبضان بقوة وحذر على المقود وكتفاه العريضتان تحجبان عنها الرؤية. إنه ضخم الجثة، حتى وهو جالس.. تذكرت كيف رفعها بسهولة عن الرصيف.. وارتجفت، فهل سيلاحقها هؤلاء المجانين؟ وكأنما قرأ أفكارها، ذلك أن عينيه

ساعة؟

ـ عشرين دقيقة آنسة يورك.

ـ شكراً لك.

ـ على الرحب والسعة.

أف له. أيجب أن تكون له الكلمة الأخيرة دوماً؟ وهل يجب أن تبدو دائماً مُهدِّدة؟ إن في هذا الرجل ما يبعث الريبة أو ما ينذر بالخطر والوعيد. أجل، هذه هي الكلمة المناسبة في كامبرون هذا. لمحة عنف تظهر في طريقة كلامه وابتسامته، وحتى في طريقة تحركه. تركزت عيناها على ظهره، على ما يظهر من عضلاته تحت السترة الرمادية، وعلى الطريقة التي تمدد بها كتفاه القماش. ما زالت تذكر السهولة التي حملها بين ذراعيه في المطار وما زالت تشعر بعضلاته التي تعلقت بها. ثم تحركت عيناها إلى شعره الأسود وإلى طريقة تجعده فوق ياقته... أليس من المفترض أن يضع السائق قبعة؟

فجأة، أحست بأهمية النظر إلى وجهه.. غريب.. لقد مضى عليهما في هذه السيارة اللعينة أكثر من ساعة، ورغم ذلك ما زالت لا تعرف شكله... إن لعينيه ذاك اللون الرمادي وإن لارتفاع أنفه تعالياً ولفمه قسوة ورقة.. غيرأنه لا فكرة لديها عمّا تبدو عليه هذه الأشياء مجتمعة.. ولكنها تشعر بأن هذا الرجل الذي يقود السيارة اللعينة إلى حيث لا يعلم إلا الله بهي الطلعة.

إنه بالتأكيد ليس سائقاً عادياً.. وهزت رأسها: منذ متى تعرف أي شيء عن أي سائق؟ إن هذا سخيف. فالسائقون بشر، يشبهون أي كائن بشري آخر، وهم يقودون السيارات للارتزاق. ولكنها بطريقة ما، لم تستطع تصور هذا الرجل خلف مقود الكاديلاك ينقل والد جوستين من مكان إلى آخر، ينتظر بصبر خارج أحد مصانعه أو مكاتبه.

تسارعت نبضات قلبها.. توقفي عن هذا السخف! فمن هو إن لم يكن سائقاً؟ إن مخيلتها تسيطر عليها ثانية.. حسناً.. ولماذا لا تسيطر؟

إنها مسمرة منذ غادرت لندن، فهي لم تنم خلال الرحلة ولا بد أن ما تشعر به انعكاساً لمشقة السفر ولعل ما تحتاجه حماماً ساخناً، ونوماً عميقاً تستريح بعدهما نِعْمَ الراحة. تنفست بعمق ومالت إلى الأمام:

ـ سيد كاميرون.. ألا تسرع كثيراً؟

ـ سيد كاميرون؟ هل أنت رسمية دائماً مع خدمك؟

ـ وهل أنت فظ وقح هكذا دائماً؟ ـ عذراً آنسة يورك.

جعلت نبرة صوته الاعتذار سخرية. فكرت لحظة أن تقول له إنه يضيع وقته وجهده إذا كان يظن أنه يوجه إهاناته إلى ابنة مخدومه ولكنها غيرت رأيها. فرجل كهذا سيكون أوقح إن علم أنها محتالة... فليهتم آل يورك قليلاً بأخلاق سائقهم بأنفسهم. قالت بهدوء:

ـ أعتقد أن هناك تغييراً في الخطط.. أعني أننا لسنا متجهين إلى الڤيلا.. صحيح؟

ـ صحيح مئة بالمئة.

ـ هلاَّ تفضلت ذاكراً وجهتنا؟

ـ نقصد مكاناً آمناً.

ـ ماذا يعني هذا؟ إلى أين بالضبط؟

ـ خارج مدريد.

ـ أعرف أننا خارج مدريد..

ـ فتاة ذكية..

ـ ولا تعجبني نبرتك.. سيد كاميرون.. سأقول للسيد... لوالدي إنك وقح.

ضحك:

ـ أتقصدين أنني لست كما وصفني لك؟

قالت جوستين إنه جديد في عمله.. حسناً لن يبقى سائقاً لدى آل يورك طويلاً. وهذا طبعاً إن استطاعت فعل شيء ما. قالت باقتضاب وحزم:

ـ أتوقع منك أن تعاملني باحترام ووقار. حين أخبر والدي بتصرفك...

قاطعتها ضحكته الخشنة ومنعت عنها تتمة الجملة.

ـ أنت تخيفيني آنسة يورك... لقد أرعبتني دون شك.

ثمة ما هو خاطىء هنا.. سحبت نفساً عميقاً.

ـ لم ترد على سؤالي.. سألتك إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ اسمعي.. استرخي قليلاً، فليس لديَّ الوقت لإلقاء محاضرة.

بدا الجو المبرَّد داخل السيارة فجأة قارساً.. فقالت وهي تأمل ألاَّ يحس بالخوف في صوتها:

ـ كاميرون... إلى أين تنقلني؟

شهقت حين اندفعت السيارة إلى الأمام بسرعةٍ أكبر:

ـ اصمتي واربطي حزامك.

ـ إياك أن تلقي عليَّ الأوامر.. سألتك سؤالاً!

ـ اربطي الحزام آنسة يورك فإن اضطررتني إلى التوقف لأربطه لك ندمت. خفق قلبها بين ضلوعها وهي تشد الحزام مرتجفة.. أهو مجنون؟ كانت السيارة تزداد سرعة وهي تتمايل من جانب إلى آخر فوق الطريق الضيقة، وكان كاميرون ينحني فوق المقود، ينظر من حين إلى آخر في المرآة، مشدود الفم. سيطر طعم الخوف النحاسيّ في الحال على فم غلاديس... حسناً... آنَ لك أن تواجهي الوقائع... أنت عالقة في السيارة مع رجل مجنون.. مدت يدها بحذر لتلمس مقبض الباب.

ثم ماذا؟ الباب سيكون بلا ريب مقفلاً إلكترونياً، ففي السيارات الفخمة يكون كل شيء الكترونياً. وإن لم تكن كذلك فما الذي قد تفعله؟ إن الأحمق وحده يقفز من سيارة تسير بمثل هذه السرعة. نعم هي خائفة، ولكنها ليست غبية.

العبي ببرود غلاديس، تصرفي وكأنك الآمرة الناهية. خذي نفساً

عميقاً.. جيد.. والآن نفس آخر... وقالت بحزم:

ـ حسناً.. هذا يكفي. أوقف السيارة حالاً. أتسمعني؟ قلت أوقف السيارة.. أنا...

نظر كاميرون إلى المرآة بعينين باردتين:

ـ اخرسي.

ـ اسمع كاميرون لا أعرف من تعتقد نفسك، لكنني...

ـ لست خالي البال للجدال آنسة يورك... ارجعي إلى الوراء واصمتي.

ـ لن أصمت! وأنت ستبطىء من سرعة هذه السيارة أتسمع؟ في هذه اللحظة! في هذه...

ـ أفٍ لك وألف أف يورك... اصمتي أو...

شحن التهديد غير الملفوظ الجو بينهما.. اتسعت عينا غلاديس وغاصت في المقعد الجلدي الوثير.. ليس لشيء معنى... إلا... أهو صحافي يسعى إلى قصة مثيرة؟ قالت لها جوستين إن الصحافيين في هذا البلد يفعلون أشياء مجنونة. لكن هذا أكثر من جنون! ما من أحد قد... ورفض عقلها التفكير في الكلمة... ما من أحد قد يخطف جوستين يورك للوصول إلى قصة.

ـ لا!

لم تكد الصرخة الهامسة تغادر حنجرتها... لا.. لا يمكن أن يحدث.. لا يعقل..! لكن فجأة سمعت صوت جوستين يقول وكأنها تجلس قربها:

ـ أحب اسبانيا.. أحب ناسها وطعامها وطقسها. أما الشيء الوحيد الذي أكرهه هو أنني لا أجد الحرية التي أتمتع بها هُنا.

ـ أبسبب الصحافة؟

تنهدت جوستين:

ـ لا أفكر فيهم... هناك عصابات خطف ناشطة في اسبانيا في

سبيل الفدية. لذا يشعر والدي بالقلق عليّ خاصة هذا الصيف، وذلك لأن الاضطرابات تعمُّ مصانعه.. حسناً.. يجب أن أعتاد على عدم الابتعاد عن الڤيلا دون مرافقة.

حدَّقت بخوف في الرأس الأسود أمامها.. أوه يا إلهي.. أرجوك لا...

اتخذت السيارة منعطفاً آخر، فوقعت على جنبها ضاربة مرفقها بالباب. لا بدَّ أن كاميرون سمع الخبطة. فقد نظر إلى المرآة حيث التقت عيناه بعينيها، فانحبست أنفاسها في حنجرتها. النظرة الباردة المتحفظة استبدلت بنظرة محتسبة خالية من الرحمة...

ـ إذن.. لقد فهمت أخيراً.. أليس كذلك؟ ولم الدهشة آنسة يورك؟ عرفت أن هذا قد يحدث.

ـ ولكن...

ـ استرخي فقط.. وتقبلي الوضع ببساطة وهدوء... فالاضطراب لن يفيدك.

هكذا إذن.. إنها لم تخدع طاقم الطائرة ورجال الجمارك ومفتشي الجوازات والصحافيين فقط... بل خدعت المجرمين وجعلتهم يُقبلون على خطفها بدل جوستين يورك.

وبدأت السيارة تبطىء قليلاً... ماذا جرى لها؟ هل غادرت لعبة تغيير الهويات تفكيرها؟ كادت تضحك بصوت مرتفع.. فليس عليها إلا الاعتراف لهذا الرجل بأنها غلاديس هاردويك.. الفتاة الإنكليزية العاملة، التي لا تقترب من ملايين عائلة يورك، إلا عندما تتقاضى أجرها.

أحست بصوتها يكاد يخرج متحشرجاً فابتلعت ريقها وقالت:

ـ أنت.. أنت ترتكب غلطة فادحة.

نظر كاميرون إلى المرآة:

ـ ما من غلطة.

ـ بلى سيد كاميرون.. أنا لست من تظن.. أنا لست جوستين يورك.

ضحك.. ضحكة قصيرة خشنة جعلت قلبها ينقبض خوفاً:

ـ صحيح.. وأنا ذكر الأوز.

ـ ولكنني لست جوستين يورك. حقاً.. أقسم لست جوستين يورك.

التقت عيونهما ثانية، فاستطاعت رؤية اشتداد فمه، وتوتر عضلات فكه... فسألها هامساً:

ـ ألست جوستين يورك؟

ـ لا.. بالطبع لا.. أنا..

لكن إن لم تكن جوستين يورك، وريثة ثروة يورك... فما حاجته بها؟ ستكون عديمة الفائدة، حملاً ثقيلاً على عاتقه، وشاهداً حياً على جريمته فيقرر عندئذٍ التخلص منها.

أحست الهواء يفرغ من رئتيها. يا الله.. سيقتلها! ما من شك في هذا... لقد شل حركة الصحافيين المسكينين. وحملها بسهولة.. ولا تريد التفكير في ما قد فعله بالسائق الأصلي ليحصل على البدلة والسيارة.

فجأة وجدت صعوبة في تنشق الهواء فحاولت سحب نفس خفيف.. ثم آخر. كان يراقبها، فرفعت بصرها ببطء، في محاولة لتحضير نفسها إلى اللحظة التي تلتقي فيها نظراتهما. أخيراً أسرت عيناه الفضيتان عينيها، وسألها بنعومة:

ـ حسناً.. هل أنت جوستين يورك؟

أطرقت رأسها وهي تعلم هذه المرة ماذا يجب أن يكون ردها عليه، وقالت بسرعة:

ـ نعم.. بالطبع أنا.

أظهرت ابتسامة سريعة أسنان كاميرون.

ـ بالطبع أنت.. فمن تكونين غير جوستين؟

خفت سرعة السيارة الآن حتى غدت زحفاً.. كانت تسير فوق مرتفع ترابي بدا لها طريق عربات خيول أكثر منه طريق سيارة. وكان السرو والصنوبر يكسوان جانب التل التي تظهر على مقربة منه منازل منتشرة وبرجاً لكنيسة القرية.

لم يكن لديها فكرة عن المكان، فلا تعرف إلا أن السيارة تسير بهما منذ ساعة. والشيء المؤكد الوحيد هو أنها وحيدة وبعيدة عن موطنها.

انعطفت السيارة بحدة يساراً. كان المحرك يعمل بصمت أثناء تجاوز مجموعة أشجار سرو قابعة على قمة مرتفع بسيط. لمحت فيلا صغيرة بيضاء اللون، ابتلعت ما حولهما من أشجار. كان المبنى الأمامي واقفاً في نهاية أيكة الأشجار. عندما اقتربا، ضغط كاميرون على زر في لوحة القيادة.. فسمعت أزيزاً إلكترونياً، ارتفع على إثره باب حديدي ضخم إلى الأعلى، ثم لم تلبث أن دخلت السيارة إلى المدخل الضيق الذي تعالى منه صوت همس الباب وهو يقفل خلفهما. توقف صوت المحرك، فساد الصمت حولهما.

استدار إليها في مقعده:

ـ لقد وصلنا.

إلى أين؟ أرادت أن تسأل، لكنها تعلم أنها لن تتلقى الرد فسألت متلعثمة:

ـ وماذا.. ماذا الآن؟

ـ نخرج من السيارة.. وندخل المنزل.

أرعبتها فكرة السجن داخل أسوار الڤيلا معه. فعلى الطريق كان أمامها فرصة للهرب، وإن كانت ضئيلة. فجأة بدت لها السيارة ملاذاً سماوياً... فهمست:

ـ لا.

ـ بلى... أما الباب فستجدينه غير مقفل الآن آنسة يورك.

ـ اسمع.. لا أظن..

خرج بحركة سريعة نافذة الصبر من السيارة وفتح الباب الخلفي.

ـ إنها فكرة رائعة.. لا تفكري في شيء بل افعلي.. افعلي فقط ما يقال لك.

شهقت وهو يمد يده إليها:

ـ لا تفعل! أرجوك...

لكنه كان قد أمسك بها، تعبث أصابعه بنفاذ صبر بقفل الحزام لفكه، وحدث أثناء ذلك أن لامست يده كتفها، فشهقت بحدة:

ـ أنت ترتكب غلطة..

ـ حين أرغب في نصيحتك أطلبها. فاخرجي من السيارة.

لكن غلاديس هزت رأسها، فراح كاميرون يلعن ويشتم ثم لم تلبث أن التفت يده على معصمها تجرها بحركة عنيفة خارجاً.

ـ حسناً.. فلنذهب

ـ سيد كاميرون.. ألن تصغي إلي؟ هذا ليس ضرورياً.. أنا...

ـ أنا الحكم على ما هو ضروري... فتحركي الآن.

صرخت غلاديس حين أطبقت ذراعاه حولها، وكان أن رفعها للمرة الثانية في ذلك اليوم بسهولة وكأنها دون وزن.

ـ ألا تصمتين أبداً يا امرأة. «كان يتمتم غاضباً».

وخطا بها إلى الخارج إلى حيث الشمس الحارة، فبانت لها الڤيلا البيضاء التي لمحتها وطفق قلبها يسرع، فهمست:

ـ أرجوك أعدني إلى مدريد.

ضحك واشتدت ذراعاه حولها:

ـ لا ولو كانت حياتك متوقفة على هذا!

ساد صمت مخيف ليس فيه غير خفقات قلب كاميرون المدوية تحت أذنها وأزيز زيزان الحصاد على أشجار الصنوبر.. فجأة سمعت هدير محرك... إنه لسيارة مقبلة! فتسارعت نبضاتها ثانية.. إذ ربما

تلفت مع بعض الحظ نظر هذا السائق المقبل.

ـ النجدة.. ! الـ...

ـ أيتها اللعينة...

وأطبقت إحدى يديه على فيها ثم عادت هذه اليد ذاتها تمسك مؤخرة عنقها وتضغطها على كتفه.. في تلك اللحظة أحست بأجنحة خوف ترفرف في شرايينها... ثم أحست مذعورة بشيء آخر يتحرك في داخلها، شيء مظلم، بدائي لا شكل له ولا بُعد...

أصدر كاميرون صوتاً من حنجرته، وكأنه يبتلع ريقه بصعوبة..

كانت ذراعاه تمسكان بها بقوة حتى كادت تشعر بعظامها تتحطم، وبقلبها يخفق وبشفتيها ترتجفان تحت راحة يده.. ثم لم يلبث أن عاد إليها تعقلها فراحت يداها تضربان صدره وتهمس بصوت مخنوق:

ـ اللعنة عليك... اللعنة عليك...

ضحك وهو ينزلها إلى الأرض:

ـ لا أشك في هذا.

ـ لا يمكنك فعل هذا.. إننا في القرن العشرين.

ازدادت عيناها اتساعاً، لأن عينيه الفضيتين الضاحكتين ما زالتا تأسران عينيها. ثم رد ببرود:

ـ ليس في هذه التلال.

راقبته يمد يده إلى أزرار سترته التي فكها ثم خلعها ووقف عاري الصدر.. فصاحت متوسلة:

ـ لا.. أرجوك لا تفعل..

ـ والآن... جاء دورك آنسة يورك.

ـ دوري... سيد كاميرون أنا... أنا...

كان من المستحيل عليها أن تتكلم، فالرعب شلّها وأخرسها.

ولكنها سمعته يهمس لها:

ـ بدلي ملابسك جوستين...

٣ ـ تذوب في لهيبه الفضي

أتت الشجاعة تنجدها من حيث لاتدري.. إن كان كاميرون هذا يوشك أن يغتصبها، فلماذا تسهّل الأمر عليه؟ سحبت نفساً عميقاً ورفعت رأسها متحدية. ـ لا.

الكلمة خفيفة، وجلة، إنما ثابتة. قطب حاجبيه.

ـ لديك ذاكرة ضعيفة جوستين.. ألم أطلب منك تنفيذ ما يقال لك.

ـ لن أخلع ثيابي.

هزّ كتفيه ثم قال بلا مبالاة.

ـ افعلي ما شئت... اعتقدت أن الأمر سيحدث دون مشقة. لكن الأمر عائد لك.

تقدم منها خالياً وجهه من أي تعبير، فهمست برعب:

ـ سأقتلك لو لمستني.

نظر إليها بريبة ثم ضحك:

ـ بهاتين اليدين اللتين لم تقوما بعمل مفيد يوماً؟ هيا الآن! كفى تأخيراً وقومي بما طلبته.

ارتدت عنه وهي ترى أن لا مفر لها. فجأة شعرت بحاجة ماسة إلى أن تسترد اسمها:

ـ أنا لست جوستين.. اسمي غلاديس.

توقف كاميرون عن الحركة، وضاقت عيناه:

ـ ماذا تقصدين بالله عليك؟

من أين لها هذا الغباء؟ كيف نسيت أن الاغتصاب ليس فقط ما يقدم عليه هذا الرجل؟

ـ عنيت أن لا أحد يناديني جوستين.

ـ دعك من هذا.. فوالدك يناديك جوستين.. والصحف تدعوك جوستين.. إنه اسمك.. أليس كذلك؟

أحست بالعرق البارد يتسلل نقطة نقطة إلى ظهرها.

ـ أصدقائي يدعونني «غلاديس» إنه اسمي بالتعميد تتداوله العائلة.. وقد اتخذته حين بلغت الحادية والعشرين.

هزّ رأسه مفكراً:

ـ أجل.. اسم جوستين اسم غير مستساغ لفتاة مثلك. أليس كذلك؟

فكرت غلاديس في جدتها الكبرى التي سميت باسمها.

ـ أعتقد هذا.

ـ حسناً غلاديس.. أنا بصراحة لا أهتم بما تسمين نفسك فلا أريد إلا أن تبدّلي ملابسك.

ـ لا..

فقال شاهقاً:

ـ نحن نضيع الوقت... اخلعي هذا الثوب وارتدي شيئاً آخر.

لم يكن يسمع في الغرفة غير أنفاسه السريعة. أمسكت بفتحة الفستان تضمها وتنظر إليه دهشة تحاول فهم ما يحصل.. ثم قفز نحوها ليركل حقيبتها الصغيرة بعيداً ويصيح:

ـ هيا... اسرعي!

ـ أتعني أنك تريدني أن أغيّر ملابسي!

ـ ارتدي شيئاً يسهل التحرك فيه، أم لعلك لا تحملين معك سوى ثياب الأثرياء هنا أيضاً؟

فتح خزانة في الغرفة وأخرج ثياب رجل.. فقالت:

ـ لست واثقة... أعني.. لا أذكر...

لا تذكر ماذا وضعت جوستين في تلك الحقيبة الصغيرة... أدوات زينة.. أم ثياب نوم.. أم ماذا؟

لقد قالت لها:

ـ سأضع بعض الأغراض العادية خشية أن يعبث بها أحد. أنا لا أحمل معي من ثيابي إلا بدلة واحدة أستخدمها إذا ما تأخرت الطائرة، فمن الأسهل ترك خزانة ثياب كاملة في كل منزل.

قالت غلاديس مترددة وهي تراقب كاميرون يرتدي قميصه:

ـ أظن أن معي سروالاً وكنزة.

ـ عظيم.. وافعلي شيئاً لشعرك.

رفعت يدها إلى شعرها:

ـ شعري؟

ـ يا إلهي.. ألا تفهمين الإنكليزية؟ أجل.. شعرك. ارجعي الخصل إلى الخلف، اعقديه، اربطيه، غير مهم. لكنني أريد أن تظهري مختلفة شكلاً، هيا أسرعي.

جلست فوق الكرسي مفكرة. كان يريد فحسب أن يغير مظهرهما.. لا بدّ أن الشرطة قد تلقت اتصالاً بشأن اختطافها وهم أي الشرطة يراقبون الطرقات بحثاً عن رجل في بذلة سائق وفتاة في فستان رسميّ. أيعني هذا أنهما لن يبقيا هنا..؟ تفاءلت قليلاً بل كثيراً.

ـ أنحن.. ذاهبان إلى مكان آخر؟

رفع نظره، وقال بلهجة ساخرة لا تبعث الطمأنينة إلى القلب.

ـ تستأهل السيدة عشر نقاط... هيا.. تحركي...

ـ ليس وأنت هنا.

قالت هذا دون تفكير، وما إن تفوهت الكلمات حتى حبست أنفاسها، بانتظار ردة فعله... كانت عيناه تضيقان وفمه يشتد تقلصه،

ثم أمام دهشتها ضحك:

ـ أنت مليئة بالمفاجئات جوستين غلاديس يورك. حسناً.. سأعطيك ظهري.

ـ أريد أن تترك الغرفة.

ـ حذار. قد أعود إلى خطتي الأولى نازعاً عنك ملابسك بنفسي...

ـ استدر إذن.

أمعن فيها النظر طويلاً ثم هز رأسه واستدار واضعاً يديه على خصره.

ـ اسرعي...

ارتجفت يداها وهي تفك أزرار الثوب.

ـ أنت جاهزة؟

ارتفع رأسها بحدة حين سمعت صوته النافذ الصبر.

ـ لا.. أمهلني دقيقة...

وعادت بعد قليل لمحة العنف إلى صوته:

ـ جاهزة أم لا...

انزلت الكنزة في اللحظة التي استدار فيها..

ـ وشعرك؟ ألم أطلب منك تسوية أمره؟

أجفلت حين مدّ يده إليها.. لكنه لم يقم إلا برد شعرها عن كتفيها إلى الوراء ومن ثمّ راح يمرر أصابعه في خصلاته الناعمة «هكذا أفضل»، وأمسك بوجهها «حسناً.. هذا كل ما في الأمر.. فلنذهب الآن».

توقفت جامدة بعد أن أقفل باب الڤيلا الخلفي مسندة نفسها إلى الجدار:

ـ لا..

لم ينظر إليها وهو يفتح باب سيارة بورش ذهبية كانت متوقفة

هناك:

ـ ما الأمر آنسة يورك.. ألم تعجبك السيارة؟

ابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ ماذا عن الكاديلاك؟

ـ اصعدي إلى هذه.

نفذت ما طلبه ثم راقبته وهو يدور حول السيارة ليستوي إلى مقعد السائق:

ـ ظننت أننا سنستخدم الكاديلاك.

ـ آسف غلاديس... يجب أن تقبلي بما لدينا الآن.

تلاشى أملها بالإنقاذ، فلن يلاحظ أي امرىء سيارة صغيرة على طرقات شاسعة.

شعرت به يقرأ أفكارها إذ قال:

ـ اسندي نفسك واسترخي حبيبتي. فنحن منذ الآن فصاعداً زوجان يقومان بنزهة نهاية الأسبوع.

جلست بادئاً ذي بدء متوترة على طرف المقعد، متحفزة ومستعدة لطلب النجدة. ولكن كاميرون أصرّ على أن تربط حزام الأمان:

ـ لن يرغب والدك في أن تصاب ابنته الحبيبة بمكروه.

كانت الأبواب في البورش تقفل آلياً كذلك.. بعد فترة، أحست بجسدها يسترخي في مقعدها، فلا فائدة من التوتر منتظرة فرصة هرب لا وجود لها. ومرت مسافات وساعات ضبابية، وأحست خلالها بأنها تقع في نوع من الخدر. كانت في ظروف أخرى قد تتمتع بمناظر الريف، والطريق ضيقة، تتلوى فوق تلال منخفضة بنيّة وبين حقول مكسوة بالحصاد الصيفي.. قطعا منازل زراعية، تقف وحيدة قرب الطريق.. وكأنها بقيت هكذا منذ قرون دون أن يمسها أحد.

خفف كاميرون السرعة حين اقتربا من القرية التي راحت تنهب شوارعها الضيقة المرصوفة بالحجر الأسود.. حدقت فيهم بدهشة امرأة عجوز ترتدي ثياباً سوداء تقف خارج مقهى صغير ورفع رجال يرتدون

ثياباً دكناء أنظارهم عما يتناولونه، لينظروا إليهما بوجوه جوفاء.. من المستحيل أن تتصور غلاديس أحداً منهم يهرع إليها لمساعدتها، حتى ولو جعلتهم يفهمون أنها تحتاج للنجدة. فجلست كما هي في المقعد، محاولة تجاهل نظرات كاميرون المتفرسة فيها ومنتظرة اللحظة الحاسمة التي هي أملها الوحيد.

ازدادت سرعة السيارة عندما اجتازت القرية. لم يكن على وجهه أثر ما، أما يداه فاستقرتا براحة على المقود يغطيهما قفاز قيادة جلدي. كان عليه مظهر الرجل المستعد لفعل كل شيء.. فجأة تذكرت إحساسها بذراعيه حولها وبقساوة وصلابة جسده على جسدها. فاجتاحتها موجة دوار جعلتها تشيح وجهها عنه إلى النافذة.

ما نوع الرجل الذي يختار أن يكون مجرماً؟

إنه ذكي. أو على الأقل هذا ما يبدو عليه. وهو إلى ذلك ليس بالوسيم، فهو خشن المظهر لكنه ممن تجده النساء جذاباً فله فك مربع قوي وعظام مرتفعة على الوجنتين وأهداب سوداء طويلة... وفي ظروف أخرى.. حتى هي...

ترى لمن تلك الڤيلا التي توقفا عندها لتبديل الملابس والسيارة؟ لم يكن لديها وقت لتتأمل ما حولها فلم تلاحظ إلا أنها ڤيلا مفروشة بأثاث قليل، ولكنه أنيق كما أنه لم يكن فيها لمسات قد تدل على طبيعة الشخص الذي يملكها. أهي لكاميرون؟ لا بد من هذا... لكن لماذا يعيش أميركي في وسط اللامكان؟ لماذا يعيش في اسبانيا أصلاً؟ إلا إذا كانت الڤيلا مؤجرة.. وإلا إذا كان موجوداً هنا لغرض واحد هو خطفها والمطالبة بفدية.

تصحيح.. لقد اختطف جوستين.. أو هذا ما يظنه. وإن أرادت الحفاظ على سلامتها عليها إخفاء أمر هويتها حتى يطالب بفديته. فهو حتى الآن لم يتصل ولكن ربما معه شركاء اتصلوا بعائلة يورك. ترى عندما يتم الاتصال هل ستجري الأمور سريعاً؟ وهل سيواصل والد

جوستين الإدّعاء بأن الخاطفين خطفوا الفتاة المناسبة.. فآدم يورك سيدرك فوراً أن حياتها تعتمد على مواصلة ادعاءه هذا.. ترى كم من المال سيطلبه فدية؟ آلاف؟ ملايين؟ فعلى أية حال ليس هناك حدود لما يمكن لرجل ثري أن يدفع ليسترد ابنته...

- يا إلهي...!

خرجت صرخة الألم منها قبل أن تتمكن من كبحها، وأمسكت شفتها بين أسنانها، لكن بعد فوات الأوان، فقد سمعها كاميرون:

- ما بك؟

هزت رأسها يائسة:

- لا.. لا شيء.

- هل أنت مريضة؟

قالت كاذبة:

- لدي صداع.. هذا كل شيء.

عبس قليلاً ثم ردَّ اهتمامه إلى الطريق ثانية، فأطلقت أنفاسها التي حبستها وأسندت رأسها إلى المقعد.. كيف يمكن أن تكون حمقاء إلى هذا الحد؟ كانت خلال هذه الساعات تبذل قصارى جهدها ليعتقد خاطفها أنها جوستين يورك مقنعة نفسها أنها بهذا تؤمّن سلامتها. لكن الحقيقة الآن بدت جلية أمامها فجأة. ماذا سيحدث حين يتقدم كاميرون أو من يعمل معهم بطلب الفدية أخيراً؟ عندئذ سينهار كل شيء. نعم هذا ما سيحدث. قد يدفع والد جوستين ما يُطلب منه لقاء سلامة ابنته، ولكنها ليست ابنته.. إنها غلاديس هاردويك، سكرتيرة ابنته التي لم يمضِ على عملها إلا بضعة أشهر.

لا تفكري في هذا الآن.. ولا تنظري إلى أبعد من الحاضر.. استمري في لعب الدور، وقومي بما يجب عليك القيام به بين لحظة ولحظة وبين ساعة وأخرى... انحرفت السيارة بحدة عن الطريق، ففتحت عينيها مشيحة عنها أفكارها السوداء.

ـ ماذا جرى؟

ـ هل كنت تكذبين حين قلت إنك لا تتكلمين الأسبانية؟

عبست عندما سمعت السؤال:

ـ لا.. ولماذا تسأل؟

هز رأسه وكأنها قالت شيئاً سرّه:

ـ حسناً.. في هذه الحالة ستتوقف لشرب القهوة.

فغرت فمها دهشة:

ـ ماذا تفعل؟

توقف أمام مبنى قديم وأطفأ المحرك قائلاً باختصار:

ـ تبدين متعبة.

ـ آسفة إن لم تجدني فتاة أحلامك سيد كاميرون.

ـ لكنك أكثر فتنة من المعتاد. ربما تحتاجين إلى راحة.

ـ أنت جاد؟

عندما نظرت إلى اللوحة المكتوب عليها « مقهى » قال لها:

ـ ليس هذا المكان ما اعتدت عليه.. لكنه أفضل الموجود.

خرجت من البورش مترددة، تنتظر خدعة ما، فأمسكها من مرفقها وهي تقف.. فقالت:

ـ ألست خائفاً..

ندمت على سؤالها ولكنه ابتسم ببرود:

ـ ثقي بذكائي غلاديس.. كنت أراقب الطريق خلفنا منذ ساعات.. لم يلحق بنا أحد. أما بشأن هذه القرية ـ ولعلي لا أخيّب أملك ـ فلا أحسبهم قد سمعوا بك يوماً... فلنذهب. لكن تذكري أن عليك أن تحسني التصرف.

كانت خطواته عريضة عرضاً كادت معه تركض للحاق به، وكان قلبها يخفق ترقباً.. فليقل ما يريد.. فلا بد أن الأخبار انتشرت الآن.. وقد يتعرف إليهما أحد.

صمت عند دخولهما جماعة من الرجال الموجودين هناك.. فقال كاميرون لهؤلاء الذين وجهوا إليهما وجوهاً متوترة:

ـ بونادياس.. كافيه.. بورفاڤور.

لم تفهم غلاديس سوى كلمة قهوة.. لكنها ظنت في البداية أن أحداً لم يفهم عليه، إذ لم يتحرك أحد. ثم تقدمت منهما امرأة صغيرة الجسم تضع ميدعة.

ـ سي، سي سنيور..

وأشارت إلى طاولة صغيرة، فابتسم كاميرون:

ـ غراتسيا سينوريتا.. اون دومسي بور سنيورا.. سي!

ـ آه.. سي.. سي.. ان موفتو.

تمتم لغلاديس بعد ابتعاد المرأة:

ـ اجلسي.. لا.. ليس في مواجهتي، بل إلى جانبي.

ـ أقلت لها شيئاً عني؟ سمعتك تقول سنيورا..

ـ طلبت منها أن تحضر لك الحلوى.

ـ لماذا؟

ـ ماذا تقصدين بـ «لماذا» هذه؟ قلت إن لديك صداعاً فاعتقدت أن سببه الجوع.. يا إلهي.. هل أنت دائماً كثيرة الشك؟

ـ أتحاول أن تكون مضحكاً سيد كاميرون؟

ـ ها قد عدت من جديد.. تتساءلين عن كل كلمة أقولها.

ـ أتجد هذا عجيباً؟ أوَتريدني أن... أثق بك!

عقد عينيه ينذرها فقد كانت المرأة تدنو منهما ثانية تحمل كوبين من القهوة في يدها.

ـ غراتسيا. «قال لها».

حين ابتعدت ثانية هز كتفيه وأجاب غلاديس:

ـ ولماذا لا؟ فهذا سيكون أمراً مختلفاً.. على كل حال.

ـ أفهمني ما تقول.. أنت تقترح أن.. لا.. لا.. هذا لا يصدق!

حتى أنت..

ـ هيا سيدتي.. لا تتوقفي هنا.. حتى أنا ماذا؟

ترددت ثم هزت كتفيها.. وماذا لديها لتخسر؟ إنها سالمة ما دام يعتقد أنها تساوي المال له، والمقهى هنا مكتظ بالشهود لو حاول شيئاً من العنف، قالت بهدوء:

ـ لقد حجزتني رغم إرادتي، فهل يفترض أن أنسى هذا؟

ـ لقد أخذتك لدوافع بنّاءة. ألم تفكري في الوضع من هذه الزاوية؟

ردت متجهمة:

ـ أراهنك... فأنا...

ثم أقفلت فمها لأن المرأة عادت ثانية تحمل طبقاً من الحلوى. فهزت غلاديس رأسها:

ـ غراتسيا..

وعادت إلى كاميرون.

ـ هل لأمثالك دوافع بنّاءة؟

ـ نعم إن حاولت فهم هذه الدوافع.

ـ يا إلهي.. ماذا أنت كاميرون؟ طبيب نفساني؟ أتؤمن حقاً بتجاذب الأضداد؟

ـ ماذا؟

ـ تجاذب الأضداد.. هيا الآن.. إياك وخداعي. إن رجلاً مثلك يقوم بعمل كهذا للارتزاق يفهم ما قلته منذ برهة. فالنظرية تقول إن الأعداء ينجذبون لبعضهم بعضاً وإن الرهائن مع الوقت يتعاطفون مع الخاطفين.

ضحك بخشونة:

ـ أنا لا أسألك عن النظرية آنسة يورك... بل عن فكرة تعاطفك مع إنسان آخر غير نفسك.

ـ أنا أشعر بالتعاطف معك؟ لا بد أنك جننت!

تنهد متعباً واحتسى قهوته:

ـ صحيح.. أعتقد أنني قد أجن.. حسناً.. أنا أعرف ما زججت نفسي فيه... لقد شرحوا لي من أنت. إنهم...

ـ إنهم...؟

ابتسم متجهماً:

ـ يكفي... لن تُنسيني ما يفترض بي القيام به. هيا، أنهي قهوتك، فما زال أمامنا مسافة طويلة.

راقبته يرتشف ما بقي من القهوة في فنجانه ثم تنهدت. فما يهم إن عرفت من «هم» فليس المتآمرون هنا، وليس أمامها سواه لتتعاطى معه وهو حتى الآن لم يؤذها.

ـ كلي الحلوى.. لن نقف ثانية قبل وقت طويل.

كادت ترفض ولكنها بدّلت رأيها، فمن السخافة أن تضعف قواها التي هي بحاجة إليها حتى تحين الفرصة المناسبة، فكان أن أمسكت قطعة الحلوى وقضمتها، فإذا هي لذيذة، تذكرها بشدة جوعها. أنهتها ثم التهمت أخرى. ولعقت السكر عن أصابعها. حين رفعت نظرها كان كاميرون ينظر إليها مبتسماً:

ـ لا أظنهم علموك هذا في المدرسة!

ـ أنت متكبر مريع سيد كاميرون.

ضحك:

ـ أهذا أسوأ ما قد تطلقينه عليّ من ألقاب غلاديس؟ تباً. إنني لم أبذل جهداً كافياً. حسناً. آن أوان الانطلاق.

وقف وظهره إليها يبحث في جيوبه عن المال ليدفع الحساب... الآن... وقفزت نحو الباب الذي فتحته واتجهت منه بسرعة إلى السيارة.

ـ هاي.. اللعنة غلاديس.. ماذا تفعلين بالله عليك؟.

تجاهلت صوت كاميرون الذي لاحقها فإن كانت محظوظة، فقد تجد المفاتيح في السيارة. وحتى إن لم تكن فيها تهرب، فهما في بلدة فيها أناس في كل مكان. لا بد أن يعرف أحد منهم الإنكليزية ليساعدها. عليها أن تجد هذا الإنسان الذي قد يفهم لغتها!

وصلت السيارة وفتحت الباب.. فإذا هي خالية من المفاتيح... اللعنة! رفعت رأسها فرأت شاباً يعبر الشارع ويراقبها:

ـ سنيور... بارفاڤور..

ولكنها شهقت عندما أطبقت عليها يدان قويتان تديرانها. حفرت أصابع كاميرون في لحمها حفراً لا ريب في أنه سيترك أثر كدمة يوم غد. جذبها إليه:

ـ عمل جسور ذكي... ينبهني إلى عدم إعطائك ظهري ثانية.

حدقت عيناها إلى عينيه، ثم نظرت إلى ما وراء كتفيه إلى باب المقهى المفتوح، الذي وقف بعض من كان فيه أمام المبنى يراقب ما يجري. فتنفست عميقاً وصاحت:

ـ ألا يتكلم أحدكم الإنكليزية؟

ـ سأقتلك غلاديس.

كان صوته همساً خشناً، وكانت يداه قاسيتين على كتفيها. رنت بطرف عينها فشاهدت تعبيراً مخيفاً على وجهه... ولكن ماذا ستخسر؟ بطريقة أو بأخرى، سينتهي الأمر سريعاً.. سيطلب فدية، لن يرضى أن يدفعها آدم يورك وعندها ستكون بين يديه رهينة لا فائدة منها، فيشعر بالغضب ويصاب بالإحباط.

عادت إلى النداء:

ـ أرجوكم.. أيفهمني أحد؟ هذا الرجل.. هذا الرجل...

ـ اللعنة عليك غلاديس...!

جذبها إليه بقسوة جعلتها تفقد توازنها، وتقع على جسده.. تركت يداه كتفيها، أمسك بوجهها، فخفق قلبها بشدة.. وصاحت متوسلة:

ـ لا.. لا تفعل...

أحنى رأسه إلى وجهها ويداه تأسرانها، فأنّت متذمرة... كان قاسياً في عقابه لها، فحاولت التكلم والصراخ، ولكنه أصمتها وبات الكلام بل التنفس مستحيلاً. حاولت التلوي للخلاص منه، ولكنه كان يمسكها بيدين تمنعان وجهها من الحراك. أرادت أن تضربه، تخدش وجهه، وأن تعضه وكان أن لم تستطع إلا الاستسلام لعناقه، ليس لأنها ترغب، بل لأنه يجبرها عليه. و.. مع ذلك...

يا إلهي.. الأمر يحدث لها ثانية! هناك نار بطيئة حارة تحث الخطى عبر كل عصب وعضل.. لا.. لا... أرجوك! لكنها كانت ترق وتضعف أمامه.

دفعها كاميرون عنه، ففتحت عينيها ببطء، دامعة العينين، فقال بصوت منخفض مبحوح:

ـ يا إلهي!

ارتفع وجهها إليه، فاجتاحها الشعور بالذل وهي تنظر إليه.. كان ينظر إليها نظرات عاد إليها القصدير الذائب وتحوّل إلى لهيب فضي حارق، فارتجفت.. ذلك أن نظرته تطوف فيها من عينيها النجلاوين إلى فمها المكتنز.

ـ يا إلهي! «تمتم بصوت أجش»

فابتلعت ريقها وسألته هامسة:

ـ لماذا فعلت هذا؟

مرر يده على شعره وقال بخشونة:

ـ أنا... ولماذا برأيك؟ أظننتني أتركك تفرين من بين يدي؟ كنت تحتاجين إلى ما يكمّ فاك.

تعالى الاحمرار إلى خديها.. طبعاً وما غير هذا؟ ما الذي دهاها على أي حال؟ كانت تنادي طلباً للنجدة.. ولهذا عانقها ليسكتها وليوقفها. نظرت من فوق كتفه فرأت جمهرة الرجال يتهامسون فيما

بينهم، حاولت فتح فمها ولكن ذراعه اشتدت على خصرها.. وصاح من فوق كتفها:

ـ هاي سينوري... سبيكتاكل سبلنديدو.. سي؟

وتدفقت منه الكلمات الأسبانية بطلاقة، ثم لم يلبث أن بدأ الرجال يضحكون ويقهقهون. والشباب يهزون رؤوسهم موافقين..

ـ ماذا قلت لهم؟

ـ إن النساء متشابهات في أنحاء الدنيا أجمع، وإنهن بحاجة إلى قليل من الخشونة في التعامل من حين إلى آخر.

ـ لن يصدقوا هذا.

تراجعت شفتاه عن أسنانه:

ـ لقد صدقوا وانتهى الأمر.. فهذا هو العالم القديم غلاديس، وهو لا يشبه العالم اللعوب العابث المعتادة عليه.. والآن اصمتي أو سأصمتك مرة أخرى.. ادخلي إلى السيارة.

ركبت السيارة متصلبة. تربط حزامها قبل أن يأمرها. ثم لم يلبث أن استوى إلى مقعده.

ـ لوّحي وابتسمي للمعجبين غلاديس... هيّا!.

لوحت بشكل آلي، ثم ما إن ابتعدت السيارة عن المقهى حتى رمت جسدها إلى الخلف ولاذت بالصمت حتى ابتعد المطعم الصغير عنهما فالتفتت إليه بجفاء، ولكنها قالت بصوت منخفض:

ـ لا تفعل هذا ثانية معي.. أتسمعني؟

نظر إليها، ثم أعاد بصره إلى الطريق، تشتد يداه على المقود.. ثم سمعته يقول:

ـ لا تتفوهي بتهديدات فارغة غلاديس... تعلمين جيداً أنك تمتعت بما جرى.

تفرست فيه مدة لن تنتهي قبل أن تعيد رأسها إلى ظهر المقعد.

أغمضت عينيها متأوهة: يارب ساعدني.. إنه على حق!.

٤ ـ لا أحلام بعد اليوم

جين فتحت غلاديس عينيها، فاجأها الظلام فتساءلت للحظة أين هي. ثم سرعان ما تذكرت: إنها ما زالت في سيارة البورش مرغمة، وإن السيارة ما زالت تطوي بها المسافات في الليل الدامس، سجينة مع خاطفها.

تحركت بحذر في المقعد الجلدي الفاخر تحاول إراحة جسدها المتألم دون اجتذاب انتباه كاميرون إلى استيقاظها. كم من الوقت نامت؟ ساعة؟ ساعتين؟ إن آخر ما تذكره هو غياب الشمس الذي حوّل التلال حولها إلى برتقالية ذهبية وصوت كاميرون يقول لها للمرة الأولى منذ تركا المطعم المقهى.

ـ اطلبي قسطاً وافراً من النوم فأمامنا مسافة بعيدة.

وتذكر أن ردها كان غير واع:

ـ لست متعبة.

لكن هذا لم يكن صحيحاً.. فقد كانت مرهقة.. نفسياً وجسدياً. وما إن تقدمت السيارة إلى القمة حتى ردّت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها، فغطت في سبات عميق ليس فيه أحلام.

لكن النوم لم يساعدها.. فهي ما زالت متعبة، والصداع الذي ادّعته في وقت مبكر أصبح واقعاً الآن وهو يجعلها تئن ألماً. ولم يقتصر الأمر على ألم الرأس، بل تعداه إلى سائر أنحاء جسدها المتألم من الجلوس الطويل في السيارة الصغيرة. حتى متى سيستمر هذا؟ وهزت كتفيها.. ربما الأسوأ ما زال خافياً عنها. ما من طريقة لمعرفة ما

ينتظرها في نهاية هذه الرحلة التي لا تنتهي. من يدري، ربما يخطط كاميرون ليقطع بها الحدود، ربما عبر جبال البيرينه إلى فرنسا... عقد الخوف معدتها.. كيف لأحد أن يجدها هناك؟

لا تفكري سلباً غلاديس بل إيجاباً!

إيجاباً؟ .. حسناً. قد يحملها إلى مخبأ ما في جبال سييرا دي غوادرامه إلى حيث ينتظرهما شركاؤه في الجريمة الذين لن يكونوا ربما حذرين في معاملتها كما هو حذر معها. وقد يحدث بعد أن يضعها في مكان آمن، بعيد، أن يهجم عليها أحدهم... وقد...

ـ أمستيقظة؟

ـ أجل.

ـ نمت وقتاً طويلاً. كيف حال صداعك؟

ـ ليس شديداً.. هل ستتوقف قريباً؟

ـ قريباً.

ـ كم تعني «قريباً» ؟

ـ أخشى أنني لا أستطيع تحديد الوقت بالضبط. ربما ساعة قد تقل دقائق أو تكثر. أجيد هذا؟

ردت بحدة:

ـ لا... يجب أن أدخل الحمام.

قالت الكلمات مباشرة وبصراحة متعمدة. من المذل التصريح بحاجتها، وكأنها طفلة، ولكنها لن تجعل الأمور أسوأ بالحوار حول الموضوع.

ـ ألا يمكنك الانتظار؟ «رد بنفاذ صبر».

ـ ألا يمكن تفويت فرصة دون إحراجي؟ .. لا .. لا أستطيع الانتظار. يجب أن تجد مكاناً للتوقف، فندقاً، أو كاراجاً..

انتفضت حين سمعته يبادر بضحكة فقالت له بحدة:

ـ أنا سعيدة لأنك وجدت الموضوع مسلياً سيد كاميرون.

ـ غطرستك تدهشني آنسة يورك، أين قد تجدين في مكان كهذا فندقاً أو كاراجاً... أنا واثق أن تسهيلات الإقامة في مونت كارلو، أو سويسرا فخمة جداً. ولكن لا حاجة لمثل هذا في قشتالة القديمة.

قشتالة القديمة، إذن هما في مكان قريب من سراغوسه، ألم تشاهد هذا في مجلة قديمة... قالت بجفاء:

ـ الناس هم الناس سيد كاميرون، ولهم جميعاً الاحتياجات ذاتها.

تنهد:

ـ حسناً غلاديس. لقد أوضحت وجهة نظرك.. انتظري قليلاً...

تمسكت برف العدّادات الأمامي أثناء خروج السيارة عن الطريق ثم شعرت بالسيارة تبطىء المسير حتى توقفت دون أن يطفىء كاميرون المحرك. وقال لها وهو يمد يده ليفتح لها الباب:

ـ هيا انزلي.. واسرعي.

ـ أنزل... أتعني.. هكذا... تريدني أن.. أن...

حدقت إلى الظلام خارجاً ثم نقلت نظراتها إلى الرجل القاعد قربها ضاحكاً:

ـ أنا لم أطلب منك شيئاً. كانت الفكرة فكرتك.

ـ لا أرى شيئاً هنا. إنه حقل ليس إلا.

ولكنها سرعان ما ارتدّت على عقبيها خارجة ووجنتاها تشتعلان حرجاً. كان الليل مظلماً أكثر من أي ليل مر بها قط. إن من الجنون التفكير في الهرب في مكان ليس فيه بصيص نور. لامس العشب المرتفع الخشن أطراف ساقيها تحت سروالها أثناء اجتيازها بوابة السياج. عندما انزلق شيء من تحت قدمها كادت تقع وكادت تصرخ، غير أنها كبحت رغبتها هذه، فلو صرخت لهزىء بها ولضحك عليها. كان أمامها شجرة سرو مرتفعة، فتقدمت منها آملة أن توفر لها المخبأ المناسب. بعد بضع دقائق عادت شامخة الرأس. فتحت باب السيارة ثم استوت على مقعدها:

ـ هل أنت الآن أفضل حالاً؟

ـ ما يذهلني أنك تركتني أذهب وحدي، أتثق بي؟

أطلق ضحكة ساخرة:

ـ ليس للثقة شأن في ما حدث.

ومد يده إلى المقعد الخلفي ليمسك شيئاً اسطوانياً أسود:

ـ هذا منظار الأشعة تحت الحمراء.. لا يمكنك الاختباء حتى في الظلام. سأبقى دائماً على خطوة واحدة منك غلاديس. تذكري قولي هذا قبل أن تقومي بأمر غبي.

ـ رأسي يؤلمني.. أحتاج اسبرين.

تنهد:

ـ افتحي الصندوق الأمامي تجدي فيه علبة اسبرين.

فتحته فإذا هو في فوضى كاملة، فراحت تفتش فيه فوجدت خرائط قديمة ونصف علبة علكة ونقوداً معدنية وأخيراً أطبقت أصابعها على علبة، فسحبتها ولكنها سحبت معها شيئاً آخر وقع في حضنها.. إنه شريط تسجيل.. سارع كاميرون يقول وهو يأخذه من حجرها:

ـ من الخير لنا لو نسمع بعض الموسيقى.. أتحبين شيئاً خاصاً؟

ـ أجل.. أغنية ريفية قديمة اسمها: دلني على طريق العودة إلى بلدي. أتعرفها؟

شغّل التسجيل ضاحكاً:

ـ استرخي غلاديس، سنصل قريباً.

ولكن إلى أين؟ ابتلعت حبتين اسبرين.. ليس إلى بلدها.. ليس إلى مكان يشبه موطنها.. ثم ماذا؟ إن فكرة لقاء شركاء كاميرون ترعبها، وفكرة قضاء الليل معه ترعبها أكثر. ما عاد إلى ذكر ما حدث في المقهى وما حاول لمسها. ولكن هذا قد لا يعني شيئاً.. لقد استغلها مرتين من قبل وأوضح أنه قد يعيد الكرة مرة أخرى، إذا ناسبه هذا. إذن ليس أمامها إلا عدم فسح المجال أمامه وإطاعته فيما يقوله.

عندما عمّ صوت السيمفونية جو السيارة التفتت إليه دهشة وقد عجزت عن منع نفسها عن الكلام:

ـ فرقة نيويورك الموسيقية؟ أتعجبك؟ أعني أهذا الشريط لك؟

ساد الصمت وقتاً قصيراً قبل أن يرد ببرود:

ـ أجل.. ألا يتماشى مع ذوقك؟

ـ لم أقصد هذا.. أنا أحب السمفونيات.. لكنني لم.. أقصد... ما من أحد...

ـ توقعت شيئاً آخر.. أليس كذلك؟ ربما موسيقى راقصة أو...

قاطعته:

ـ لا... لم أفكر...

ـ لم تفكري في أن شخصاً مثلي قد يجد متعته في السمفونيات... صحيح؟

يا إلهي لقد آثرت خصومته:

ـ لم أفكر قط في ذوقك الموسيقي. لكن ما يحدث عادة أن الواحد منا نادراً ما يلتقي بمن يحب الموسيقى الكلاسيكية.

سمعته يزفر نفساً عميقاً:

ـ وأنا كذلك لم أكن أعتقد أنك ستتعرفين إلى هذه السيمفونية.. أعتقد أننا بتنا متساويين من حيث سوء الظن.

هزت رأسها وهي تفكر في أن عليها تجنّب إغضابه... فحياتها وسلامتها وقف عليه.

كانت عذوبة الموسيقى تطغى على حواسها... إنه على حق.. لقد أذهلها ذوقه الموسيقي.. ترى.. ما هو ذلك القول؟ للموسيقى سحر يلطّف الصدر المتوحش...

أغمضت عينيها وهي تصغي. موسيقى سيمفونية بحق الله؟ ها هي تجلس هنا، تسابق الريح في الليل داخل سيارة مع رجل يحب الموسيقى الكلاسيكية. رجل ذو ذكاء حاد، رجل روحه مرحة وعناقه

مثير.

ولكنه رجل خطفك من أجل الفدية غلاديس! أنسيت هذا؟

فتحت عينيها بحدة وجلست مستقيمة.. ماذا يحدث لها بحق الله؟ أهي مجنونة؟ كاميرون عدوها! إنه محتجزها.. لقد خطفها، وهو ينقلها الآن إلى مكان مجهول، إلى حيث قد يصيبها أي شيء.. أي شيء...

قاطعها صوته المتجهم:

ـ لقد وصلنا غلاديس إلى نهاية المطاف.. هيا بنا.

خفق قلبها بين جنبيها وقفز كأنه عصفور في قفص يضرب أجنحته هنا وهناك وجلاً. لقد توقفا على قمة تل قرب منزل صغير. تقدم كاميرون من جهتها فاتحاً لها الباب، وقال:

ـ انتبهي لخطاك، فالأرض غير مستوية.

خرجت من السيارة حذرة، متجاهلة يده الممدودة.. نهاية المطاف... أهذا اختيار خاطىء للكلمات أم هو يعني ما هو أكثر؟ وقالت له فجأة وبإلحاح:

ـ كاميرون اصغ إلي...

قاطعها نافذ الصبر:

ـ هيا.. تقدمي...

خطت خطوة مترددة إلى الأمام، ثم أخرى.. كانت الظلمة الحالكة حولها تحيل بينها وبين رؤية أي شيء. ولكنها أحست بأنها في مكان منعزل، بعيد جداً عن أية قرية آهلة... كان الحصى يتحرك بقسوة تحت أقدامهما مصدراً صوتاً، وكانت رائحة الياسمين الفوّاحة تنتقل إليها مع نسيم الليل..

ـ أمامك ثلاث درجات... تمهلي في الثانية.. إنها منخفضة قليلاً.

حاولت الابتعاد عنه، فإذا بأصابعه تطبق عليها. أرادت أن تقول له: لن أهرب. ليس الآن. ليس وساقاي تكادان لا تحملانني. ولكن

يبدو أنها تجد صعوبة في التنفس.. وعاد يحدثها حديثاً لم تكد تسمعه وذلك بسبب تصاعد خفقات قلبها.. أخيراً تركها قائلاً:

ـ انتظري..

وسمعت صلصلة المفاتيح، وانفتح الباب... نهاية المطاف.. حدقت في الظلام، فقاطعتها يد كاميرون التي حثتها على التقدم، حتماً:

ـ فلندخل..

ابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ لا أرى شيئاً كاميرون.

ـ لست مضطرة لرؤية شيء.. تحركي فقط.

ـ أخبرني إذاً...

ـ تحركي.. اللعنة!

ودفعتها يده على ظهرها إلى الإمام، إلى حيث ظلمة المنزل الخانقة على أنفاسها. وقفت مسمّرة، متوترة، مترقبة، تحاول تكييف نفسها مع ما يحيط بها.

ـ هل تسمح فتضيء النور.. أرجوك؟

سمعت الخوف جلياً في صوتها، وكرهت نفسها لذلك.. لكن هل تمكن كاميرون من الإحساس بصوتها الوجل أيضاً؟

ـ بعد لحظة..

ثم سمعت وقع أقدامه فوق الأرض.

ـ دعيني فقط... حسناً.. لقد وجدته.

سمعت حسيس عود ثقاب أضاء الظلام حولهما وأضفى على الغرفة نوراً ذهبياً مخيفاً. كان يمسك مصباحاً بترولياً في يده، فراقبته وهو يركز اللهب حتى غدا نوراً لامعاً دافئاً. ثم وضع المصباح على طاولة وتقدم نحوها فسألته:

ـ هل نحن... أليس هناك أحد سوانا؟

ابتسامته لم تكن مرضية:

ـ لا.. ليس لديّ خدم غلاديس. آسف.

ـ أليس هناك.. أليس هناك كهرباء؟

ـ ما من كهرباء، ولا أدوات صحية داخلية، ولا خدمة خاصة.. أعلم أن المكان سيعجبك.

نظرت إلى ما حولها في الغرفة التي بدت قديمة بالية.. إنها منزل خاص بمزرعة يدل على ذلك، الطاولة الخشبية التي وضع عليها كاميرون المصباح... وما يدل أيضاً على ذلك موقد الحطب ورف الصحون والمغسلة القريبة من الموقد، التي تتساقط من حنفيتها الصدئة قطرات ماء.

كان كاميرون يراقبها وتعبير غريب على وجهه:

ـ ما بالك غلاديس؟ هل أنت خائفة؟

ـ ولماذا أخاف ما دمت تريد سلامتي؟ أليس كذلك سيد كاميرون؟

هز رأسه:

ـ هذا أساس اللعبة.. أجل.

إذن فهذا ليس نهاية المطاف.. فارتدت عنه مرتجفة، وقالت بعد صمت:

ـ أرى أن لدينا مياهاً جارية!

ـ هذا صحيح.. إنها مياه نقية، ولكنها باردة. وهناك بيت خلاء في الخارج.

ـ حسن إذن... لدينا كل وسائل الراحة.. مطبخ.. حمام.. ومياه جارية...

ـ وفراش.

تكلم بصوت أقرب إلى الهمس، فنظرت غلاديس إليه، فإذا هو ينظر إليها بعينين ضيقتين، وعلى فمه شبح ابتسامة.. فتسارعت دقات قلبها... لكنها قالت بصوت هادىء مصطنع:

ـ إنه فندق هيلتون قشتالة. قلت إننا في قشتالة أليس كذلك؟

ولكن صوتها كاد ينهار في نهاية الكلمات.. وبّخت نفسها فليس عليها الانهيار الآن.

ـ ما بك غلاديس؟ أعاودك الصداع؟

هزت رأسها تحس بالدموع تجتاح عينيها:

ـ لا.. أنا فقط... متكدرة قليلاً. هذا كل شيء. غير أنني لا أحسبك قادراً على فهم السبب سيد كاميرون.. ولن يهمك كذلك... ليس...

انهار صوتها بسبب رعبها وانهمرت الدموع على وجنتيها:

ـ غلاديس.

وراح كاميرون يلعن بصوت خفيض، ثم لم تلبث أن سمعت وقع أقدام تدنو منها وأن شعرت بذراعيه حولها:

ـ هوني عليك... أعلم أن هذا قاسٍ عليك...

فشهقت:

ـ اتركني وشأني..

فقال بهدوء:

ـ أنت متعبة الآن، ولكنك ستصبحين أحسن حالاً صباحاً.

سمعت خفقات قلبه المنتظمة تحت أذنها، فأغمضت عينيها ببطء ومع ذلك قالت بعد قليل:

ـ لن تتغير الأمور صباحاً.

أدارها إليه بين ذراعيه ونظر إليها متمتماً:

ـ بل ستتغير. ثقي بي.

رفعت رأسها تنظر إليه من خلال أهدابها المبللة.

ـ أثق بك؟ ولماذا أثق بك؟ «همست».

فقال بصوت أجش:

ـ لا أود أن يكون الوضع أشد قسوة عليك مما هو... عديني فقط

أن تحسني التصرف.. و...

أحاطت ذراعاها بظهره... فجأة فتحت عينيها بشدة... يا إلهي.. معه.. معه.. مسدس، تحت حزام سرواله. كيف لم تره من قبل؟ ثم ماذا تفعل الآن؟ هل جنت؟ طاف فيها الغضب، فوبّخت نفسها لما تقدم عليه ثم دفعته عنها بكل قوتها. وصاحت:

ـ أنت على حق. أنا متعبة... وإلا لما أصغيت إليك لحظة... أية مجنونة تحسبني كاميرون؟ أعرف ما هي لعبتك، لقد عدنا إلى نظرية الأضداد.. أليس كذلك؟ ألا ترى أنك قضمت قضمة أكبر مما تستطيع أن تلوكها؟ حسناً.. إذا كنت تحسب نفسك قادراً على الاعتماد عليّ في حراسة نفسي فقد أخطأت.

هبطت ذراعاه إلى جنبيه وتغيرت أساريره، ولكن الوقت تأخر.. فهي لم تنته بعد، وستكون ملعونة لو توقفت الآن:

ـ أقول لك الآن كاميرون.. سأتخلص من هذه.. هذه.. الزريبة. وسأبتعد عنك حين تسنح لي أول فرصة.. أول فرصة..

فجأة تلاشت شجاعتها وصدمتها الحقيقة.. فابتسم كاميرون هازئاً وعيناه تقعان عليها باردتين كالثلج.

ـ أشكرك على تحذيري غلاديس. لقد سهلت عليّ عملي وبتّ أعرف نواياك.

وأطبقت يده على معصمها:

ـ انتظر كاميرون.. انتظر! لم.. أكن أقصد هذا.. أنا.. ماذا تفعل؟ إلى أين تأخذني.. كاميرون... أرجوك أجبني...

ـ سنذهب إلى بيت الخلاء أولاً وبعد ذلك أحملك إلى السرير.

ـ لا أريد الذهاب إلى بيت الخلاء. انسَ ما قلته لك عن.. أف كاميرون. ألا تسمعني؟ قلت لك.

ارتجف صوتها عندما ركل باب المطبخ ودفعها إلى غرفة بدا فيها تحت نور المصباح المهتز، سريراً ذا أربعة قوائم مرتفعة يحتل معظم

الغرفة.

ـ لا تريدين بيت الخلاء.. حسناً غلاديس.. انتظري هنا ريثما أعود.

ودفعها إلى الداخل فانكبت على وجهها فوق السرير ثم ارتمى فوقها يثبتها بيد ويمسك معصميها إلى الخلف بيد أخرى، ثم بعد ذلك سمعت همس الجلد فوق القماش ثم التف شيء كالأفعى على معصميها.. إنه حزامه... فصاحت تبكي:

ـ كاميرون لا تحزمني...

ولكن فات الآوان.

سمعت السرير يطقطق تحتها عندما تركه مبتعداً كما سمعت صفقة الباب.

دفنت وجهها في الغطاء، وتركت الدموع التي طال احتباسها لها تنهمر.. لقد كانت حذرة طوال النهار، فلم ترتكب سوى غلطة واحدة وذلك حين حاولت الهرب منه. ولكنها بعد ذلك كانت تزن كلماتها وتخطط لحركاتها وتفعل ما بوسعها لحماية نفسها منه.. وها هي الآن أفسدت كل شيء.. كيف كانت بهذا الغباء؟ لقد تركت الغضب والشفقة على النفس، أو كائناً ما يكون يسيطر عليها، وانظري النتيجة! ها هي عنيدة كأنها ديك رومي تحت رحمة مجرم خطير.. انفتح الباب ثم صفق من جديد.. أوه يا إلهي...

ـ كاميرون.. اسمع... سأكون عاقلة.. أعدك.. أنا...

ـ لا تتوسلي.. فما التوسل بعادة من عاداتك.

ـ ليتك تصغي إليّ لحظة. أعرف أنني أهنتك..

ضحك بخشونة:

ـ أهنتني؟ لم تهينيني آنسة يورك.. بل أكدت بكل بساطة رأيي بك.

سمعت حفيف القماش:

ـ ماذا تفعل كاميرون؟

رنت إليه فرأته ينزع كنزته ويرميها أرضاً.

ـ استعد للنوم آنسة يورك.. ماذا تعتقدينني فاعلاً؟

ـ لكن.. أنا.. أنا جائعة. ألن نتناول العشاء؟

شاهدته وهو ضاحك يضع مسدسه على طاولة السرير.

ـ آسف آنسة يورك. أقفل مطبخ الهيلتون منذ ساعة، ويجب أن تنتظري حتى الصباح.

ابتلعت ريقها الجاف، متسائلة عما إذا كانت ستتمكن من إيجاد ما يكفي من لعاب على لسانها ليتحرك:

ـ كا.. كاميرون... اسمع... ما حدث منذ قليل.. ما قلته.. ألا يمكن أن تنساه؟ ألا يمكن إعادة الأمور إلى ما كانت عليه؟

انتفضت عندما سمعت ارتطام حذائه بالأرض.

ـ هذا بالضبط ما سنفعله آنسة يورك.. سنعود إلى ما كان يجب أن تكون الأمور عليه. لقد كدت أترك نفسي تؤمن بأنك من البشر.. ولكنك ذكرتني بخطأ اعتقادي. أنت جوستين غلاديس يورك التي أعرف كل شيء عنها.

شهقت حين أمسك كتفيها وقلبها على ظهرها ثم أجلسها.

ـ أنت تفضلين الموت على قضاء ليلة في... ماذا قلت آنسة يورك؟ تفضلين الموت على قضاء ليلة في هذه «الزريبة»...

ـ كاميرون.. لم أكن أعني ما قلته...

كانت الدموع تتدفق بحرية على وجهها وهو يحرر معصميها وقال بشخرة:

ـ بل كنت تعنينه، وأنا في الواقع شاكر لك تذكيري بطبيعة علاقتنا.

فركت غلاديس عينيها بيديها، ثم رفعت نظرها إليه، وقد مات الرجاء في حلقها. تحت نور المصباح الخفيف الدافىء، لمعت ثنايا صدره المنبسطة في عتمة الغرفة.. وأعادت نظرها إلى وجهه، محاولة التفكير في ما قد ينهي التوتر في الغرفة.. لكن تفكيرها كان مقفلاً. قال

لها بصوت خفيض وابتسامة باردة تلوي فمه القاسي:

ـ إنه وقت النوم غلاديس.

ـ أنا.. أنا.. لست متعبة.

ـ أما أنا فمتعب.

ـ كاميرون.. اسمع.. أنا..

كانت همستها واهية ضعيفة كتويجة زهرة ساقطة. حدق فيها جامداً، والأبدية تمر في لحظة.. ثم ضرب قبضته على يده.. وقال بهمس أجش:

ـ ادخلي الفراش.. هيا.. ! الآن!

غرقت غلاديس فوق الفراش وقد تلاشت قواها. لقد فعلت كل ما في وسعها، وما سيأتي أبعد من قدرتها على السيطرة.. أمسك بيدها فأحست بلمسة الحزام الجلدي تلتف على معصمها.. أغمضت عينيها بقوة.. وكأنها عادت فتاة صغيرة في مزرعة عمتها. هذا ما كانت تفعله دوماً لتصد أمراً رهيباً، شيئاً مخيفاً.. كزيارة طبيب أسنان، أو طبيب صحة.. أو...

ـ تصبحين على خير غلاديس.

فتحت عينيها بعد أن أحست بثقل جسده يستقر فوق السرير إلى جانبها. لقد ربط طرف الحزام الآخر بمعصمه، ووضع المسدس أمام الأخرى على الفراش قربه فهمست:

ـ تصبح على خير.

تثاءب ثم أدار وجهه إليها:

ـ حتى لو استطعت فك الرباط دون إيقاظي.. وهذا ما أشك فيه.. فلن تستطيعي الهرب. أحلام سعيدة.

مد يده ليخفض لهب القنديل، ثم تمدد وكأنه قط هادىء. فحدقت فيه مذهولة تراه يغمض عينيه غير مبال. بدت أهدابه على نور المصباح الضئيل كثيفة ولكن ما أثار استغرابها أنه بعد دقيقة غرق في نوم رتيب.

نظرت إلى السقف.. طبعاً سينام بسرعة.. فما الذي سيبقيه صاحياً؟ إنه لم يعانِ من الرعب الذي مرت به. لم يفزع حتى الجنون.. سينام.. وسيشخر على الأرجح.. بينما هي ستبقى مستلقية طوال الليل.

بينما هي... بينما...

وأطبقت أجفانها ثم غطت في النوم... في وقت ما خلال الليل.. اشتد الهواء وهبت ريح باردة رطبة لم يلاحظها أي منهما، أثناء استغراقهما في النوم استدارا نحو بعضهما بعضاً، ونامت غلاديس بين ذراعيه نوماً خالياً من الأحلام...

* * *

٥ ـ نيران في ثلوجها

عندما استيقظت غلاديس كانت الشمس تغشى الغرفة. كانت وحيدة مع أن دفء جسد كاميرون ما زال على الفراش قربها. رفعت أصابعها رأساً إلى معصمها، تدلّك بشرتها في الموضع الذي ترك حزامه عليه خطاً خفيفاً. أف لهذا الرجل!

نظرت إلى الغطاء الذي يدثرها فاستغربت، لأنها لا تتذكر أنها استخدمته حين غفت ليلة أمس... شدت الغطاء حتى ذقنها، وجلست ترفع شعرها عن عينيها... الباب غير موصد، وهذا يعني أنه في الخارج.. ولكن لا يعقل أن يبتعد ويتركها نائمة وهو من قيدها هكذا.

كفاك تفكيراً! كانت رائحته ما زالت عالقة في السرير قربها، فأغمضت عينيها وتنفست بعمق، متسائلة ألا يستخدم العطر أبداً.. وليته لا يستخدمه... وليت رائحته تبقى هكذا دائماً، وهمست لنفسها بذعر:

ـ هل أنت مجنونة؟ لا بد أنك مجنونة.. أنت...

وأسرعت في تبديل ثيابها قبل أن يعود.

ـ صباح الخير.. هل نمت جيداً؟

أتاها صوته من الباب..

ارتفع اللون إلى خديها:

ـ صباح الخير.. أين بيت الخلاء؟

أشار إلى الغرفة الرئيسية:

ـ خلف هذه الغرفة هناك باب.

ردت بلهجة رسمية:

ـ شكراً لك. لا أعتقد أنك شاهدت حذائي؟

ضحك:

ـ في الواقع شاهدته.

ـ حسناً.. أين هو؟ أحتاجه في الخارج.

هز كتفيه:

ـ بيت الخلاء على بعد خطوات. لذا ستقدر حتى قدماك الناعمتان على اجتياز المسافة.

ـ حسناً.. قل لي أين هو حذائي كاميرون؟ فأنا...

ـ ما من حذاء.. ولن يكون لك هذا الحذاء حتى أستطيع مراقبتك.

ردت حانقة:

ـ بحق الله. هذا جنون.!

ـ لماذا لا تفكرين في الأمر غلاديس من منحى آخر؟ لقد تحسن وضعك كثيراً منذ البارحة.. فالقدمان العاريتان خير من جسد عار.

صاحت به وهي تتجاوزه:

ـ أنت كريه لا تطاق!

فضحك:

ـ ستكون القهوة جاهزة حين تعودين.. ولعل القهوة تحسّن من مزاجك.

استقبلتها عندما عادت بعد لحظات إلى المطبخ، رائحة القهوة. ولاحظت أن كاميرون ما يزال ينظر إليها، فأشاحت بوجهها عنه.

ـ أغراضك الخاصة غلاديس في الحقيبة في الغرفة.. قد تحتاجين إلى فرشاة أسنانك أو شيء آخر.

هزت رأسها وتابعت المسير نحو غرفة النوم. كانت الأرض الحجرية برّاقة ناعمة من جرّاء الاستخدام أجيالاً وأجيالاً كما كانت دافئة

تحت قدميها الحافيتين. مررت المشط في شعرها. تتذكر كيف رتب لها كاميرون شعرها بالأمس، والغريب في الأمر أنه أعاده إلى ما كان عليه قبل أن تتزيا بزي جوستين. وشعرها في الوقت الحالي بحاجة إلى أكثر من تسريح ولكنها ليست في مزاج يسمح لها بتفتيش الحقيبة بحثاً عن فرشاة. كما ما الفائدة من العناية بمظهرها؟ فكاميرون هو الشخص الوحيد الذي سيراها.

حملت فرشاة أسنانها إلى المطبخ، وراحت تنظف أسنانها فوق المغسلة الصدئة.. الماء البارد كالجليد جعلها تشهق حين رشت بعضاً منه على وجهها ولكنها الآن بعد أن انتهت تحس بأنها أفضل حالاً.

عادت إلى المطبخ فوجدته يحمل كوباً رقيقاً من الخزف قدمه لها وابتسم. كان هناك على الطاولة علبة من سمك التون، إضافة إلى علبة بسكويت. جلس على حافة الطاولة ثم قال بخشونة:

ـ الفطور. لعلك غير معتادة على تناول الحليب صباحاً لأنك لن تجني منه شيئاً هنا.

جلست في مقعد قبالته، ورفعت الكوب إلى فمها. كانت القهوة ثقيلة ولذيذة.

ـ جيدة!

ـ بل جيدة جداً في الواقع.

ـ لك نصف ما في علبة التون وأكثر إن أحببت. أذكر أنك كنت جائعة ليلة أمس. في الواقع بدوت مهتمة بالأكل أكثر من اهتمامك بالذهاب إلى الفراش.

وابتسم، فارتفعت حمرة الخجل من صدرها إلى وجهها:

ـ نحن لم نذهب إلى الفراش يا كاميرون.

سألها ببراءة:

ـ ألم نذهب؟ غريب.. أستطيع أن أقسم أننا ذهبنا وإلا كيف استيقظت فوجدت رأسك على كتفي هذا الصباح؟

ـ رأسي لم يكن على كتفك!

ـ كنا ننام معاً. . .

ـ لم ننم معاً. . ذهبنا إلى الفراش، بكل بساطة. . .

ـ هذا ما قلته في البدء.

عدلت عن الرد في اللحظة الأخيرة، ودفعت كرسيها مبتعدة عن الطاولة، فارتفع حاجبا كاميرون:

ـ لا تقولي إنك لن تتمتعي بهذه الوليمة التي أعددتها لك!

ـ تمتع بها لنفسك. أنا لا أحب التون.

ـ كنت متأكداً من هذا. . . في الواقع، كنت أفضل اللحم والبيض أو «الكرواسون» ، أو أي شيء آخر، لكن التون وحده هو الموجود على لائحة طعام هذا الصباح.

ـ سأتناول القهوة فقط. . شكراً لك.

رد بهدوء:

ـ كلي غلاديس. لا أريدك أن تموتي جوعاً بسببي.

ـ أعرف أنك لا تريد موتي، فما الجدوى مني إن مت. أليس ذلك بصحيح؟

ـ هذا صحيح. . ولكنه ليس ما كنت أفكر فيه.

ـ لا يهمني أبداً ما تفكر فيه كاميرون. . ولكنك على حق. . . فلا فائدة ترتجى من الجوع. .

وضعت قليلاً من التون فوق قطعة البسكويت، ثم قضمتها. . لا شيء حتى الكافيار ألذ طعماً من هذا، وابتلعت بقية القطعة ولعقت البقايا عن أصابعها. . . فضحك كاميرون:

ـ لذيذة؟

من العناء التظاهر بالعكس، فتنهدت:

ـ رائعة. . . لا أذكر آخر مرة تناولت. . . ألن تأكل؟

ـ فيما بعد.

ـ لكنك لم تأكل منذ البارحة، والحلوى التي تناولتها أنا في المقهى أمس لم تذق منها شيئاً.

وضعت قطعة البسكويت من يدها بعد أن تحولت اللقمة في فمها إلى عجين. . فحدق فيها كاميرون ثم بدأ يضحك:

ـ ما بك الآن! يا إلهي. . لم أر قط امرأة كثيرة الشك مثلك.

مد يده إلى قطعة البسكويت الباقية وابتلعها:

ـ أعترف أنني سأفعل ما بوسعي لأبقيك هنا. . ولكنني لن أخدرك طبعاً.

ـ ستستخدم القيد فقط؟ حسناً هذا يبعث إلى قلبي الراحة. ذكرني أن أشكرك يوماً ما.

ـ هيا. . هيا. . عبث هي السخرية كما أن الحزام ليس قيداً.

رفع قهوته إلى فمه، وارتشف منها رشفة. فقالت:

ـ ألم يكن قيداً؟

ـ كان جهاز إنذار مرتجل.

ـ لقد قيدتني كاميرون. . أنت. .

ـ لقد قيدت نفسي معك. . وهنا يكمن الفرق.

ـ لا أرى فرقاً.

ـ حقاً. .؟ حسناً سأقيدك الليلة إلى السرير بدل تقييدك إلى حصني. اسمعي غلاديس. . كلما أسرعت في الاستقرار والهدوء، كلما سهلت الأمور علينا معاً.

ـ أستقر؟

ـ أجل. . أعلم أن هذا أمر غير مسلّ لك. . ولكن. . .

نظرت غلاديس إليه نظرة من لا يصدق قوله:

ـ إن لك طريقة غريبة بالتلاعب بالألفاظ كاميرون. . . لا. . هذا أمر غير مسلٍّ! فالرعب لم يكن يوماً لمعظم الناس مسلياً. ربما لأشخاص مثلك. .

المحرك، قائلاً وهو يضع نظارة سوداء:

ـ نحن زوجان.. رجل وامرأة في إجازة.. تذكري هذا لئلا نتعرض لمتاعب.

جلست غاضبة في السيارة التي انطلقت من أمام باب منزل المزرعة فوق الطريق الوعرة.. ليس أمامها خيار سوى الانصياع إلى أوامره... إنه قوي وسريع، إضافة إلى أنه مسلح، فقد شاهدته حين أعطاها الحذاء ينظف شيئاً معدنياً أسود بقطعة قماش، فعرفت أنه المسدس فسألته بصوت طبع:

ـ هل تتوقع متاعب؟

ـ أتوقع المتاعب دائماً.. ولكن لا تقلقي.

ـ هل ستستخدمه إذا اضطررت؟

ـ نعم.. ولكن فلنأمل ألا يحدث ما يدفعني إلى استخدامه.

أهو مجرم وقاتل؟ إن كان فيه لمسة تمدن وذوق رفيع فهذا لا يبعده عن الجريمة... إنه.. إنه..

ـ فيم تفكرين؟

ـ لا أفكر في شيء.

ـ سيجري كل شيء على ما يرام غلاديس.

ـ معقول؟

ـ أجل. وقبل أن تشعري بمرور الوقت، ستعودين إلى مدريد، سالمة معافاة، وكأن ما حدث حلماً. أهذا ما تريدينه؟

لم تقل شيئاً، ولكن فجأة ترقرقت عيناها بالدموع، فأخذ كاميرون يلعن بحنق ثم لم يلبث أن داس على المكابح بقوة.. فتوقفت السيارة على الطريق الضيقة.

صاح بها بشراسة:

ـ تعالي إلى هنا.. اللعنة!

ثم، أصبحت بين ذراعيه، تتمسك هي بعنقه ويربت هو على ظهرها

ملاطفاً.. أحست بزاوية لوحة العدادات تؤلم جنبها.. ولكن لم يكن هناك ما هو أهم من الإحساس بكتفيه تحت يديها... أو بدفء جسده الذي راح يكتسح برودة جسدها..

ثغاء عنزة مزعج، وعواء كلب، فصلهما عن بعضهما بعضاً... فهمست مرتجفة، تضع يدها على فمها:

ـ يا الله!.. كاميرون...

مد يده إليها وأراد أن يجذبها:

ـ عودي إلى هنا!

ولكنها هزت رأسها، وشهقت، تدفعه عنها بيدها فوق صدره:

ـ لا.. لا.. لا يمكننا فعل هذا.

ـ سنذهب إلى مكان نجد فيه خلوة. أنعود إلى المنزل...

ـ لا.. لا.. تصرفنا هذا خطأ.

ـ بل هو صحيح كما تعرفين جيداً.

ـ لا.. لا تلمسني أبداً كاميرون.. أتفهم؟ أبداً.

حوّل البرود عينيه إلى قطعتي ثلج وجعلت همسته الشعر في مؤخرة عنقها يقشعر.

ـ أفهمك... أفهمك تماماً...

ومد يده إلى مؤخرة عنقها وشد على شعرها:

ـ لا تتلاعبي بي بعد الآن غلاديس.. وإلا ستتأذين!

كان صوته إنذاراً مخيفاً في سكون السيارة.

تراجع عنها وأدار المحرك، يدفع قدمه إلى دواسة السرعة بقوة جعلت غلاديس ترتدّ إلى الخلف. فخاطرت عندذاك بنظرة سريعة إلى وجهه، وسرعان ما تمنت لو أنها لم تنظر إليه، فقد رأت وجهه كصخرة منحوتة، ويديه ككلابتين خطرتين.

كاميرون رجل خطير كنمر في أدغال. إنه مخلوق يخفي تحت واجهته الجميلة نواياه ضد ضحيته، ضدها هي. كادت عندما خفق قلبها

تلك الخفقة، تغرق في دفق نيران أشعلها في داخلها... وكانت ستموت بسعادة بين ذراعيه.

ارتجفت غلاديس رغم حرارة شمس آب.. أهذا ما تحس به ضحية النمر في اللحظة الأخيرة؟ أهناك نوع من الهوى الأسود الأعمى يربط بين المفترس وفريسته؟ يا رباه يا رحيم، ما هذا الذي يصيبني؟

* * *

٦ـ للحقيقة يد قاسية

قفزت البورش إلى الأمام، وانزلقت تهبط الطريق الجبلي بسرعة متهورة، لا تبطىء إلا حين تقاطعها طرقات ترابية تمتد بين الحقول الخضراء.. كان كاميرون عندها ينظر إلى المرآة ثم يندفع بالسيارة التي كانت تزأر استجابة وتقتحم الطريق مخلفة وراءها دوامة من الغبار الأحمر. ولكن غلاديس بعد انعطافه انعطافة خطيرة تنحنحت قائلة:

ـ ألست تقود السيارة بسرعة جنونية؟

تراجعت شفتاه عن أسنانه في ما يشبه الابتسام:

ـ بلى.

بلى... وليس ربما أو قد يكون هذا.. أو حتى هل أفعل هذا؟ سرقت نظرة إليه وهي تفكر في أنه اكتفى بكلمة واحدة متحدياً إياها أن تعترض. ولكنها وجدت أن هذا أفضل من الصمت الذي أمضيا بين مخالبه نصف ساعة.

افهمي ما جرى خير فهم غلاديس. لقد عانقك، وذبت بين ذراعيه حتى جعلته يعتقد أن أي شيء ممكن ثم ارتددت عنه وطلبت منه الابتعاد عن نفسك. فرد عليك قائلاً «لا تتلاعبي بي» وتعرفين جيداً ما يعني هذا. لقد ظن بأن جوستين يورك تتلاعب به... إلا أن جوستين ليست بالسوء الذي يعتقد أنها عليه. وما العمل وهي لا تستطيع البوح له بالحقيقة. لا تستطيع أن تقول له إنها غلاديس هاردويك وليست جوستين يورك. وهي إن استطاعت الاعتراف، فلن تستطيع تفسير ما

أحست به حين عانقها وحين نظر إلى عينيها أو حين همس باسمها.

من الأفضل ألا تحلل أي شيء قبل أن تتخلص من هذه المحنة بسلام، وهي إن تخلصت منها ستعمد إلى التفكير المنطقي. ترى هل أحس رهائن آخرون بما تحس به؟

إنه يحتفظ بك منذ يومين غلاديس. بل منذ ما يقل عن ذلك. إنها ست وثلاثون ساعة فقط.

ـ أخرجي نظارتك السوداء وضعيها على عينيك.

انتفضت ثم التفتت إليه:

ـ أنا... ماذا قلت؟

نظر إليها ثم أعاد نظره إلى الطريق:

ـ ضعي نظارتك الشمسية.. وأبقيها حتى أطلب منك العكس.

فتشت غلاديس في حقيبتها وأخرجت النظارات.. نظارات جوستين. ووضعت الإطار الفخم على أنفها، وسألت:

ـ هذه البلدة التي نحن ذاهبان إليها، ماذا قلت اسمها؟

ـ لم أقل.

ـ كاميرون.. اسمع.. أنا آسفة على ما حصل.

ـ لست مدينة لي باعتذار آنسة يورك.

ـ أنا لا أعتذر.. فقط.. كلانا... أعني.. إنه وضع ضاغط..

نظر إليها ببرود مقاطعاً:

ـ أهذا صحيح؟

ـ اسمع.. أنا لا أسعى الآن إلا إلى تلطيف الجو، فأنا أكره أن أترك لذلك... الحادث البسيط بيننا...

ـ انسي الأمر.. لقد نسيته أنا.

ردت بصوت حاد:

ـ وهل نسيته حقاً؟ حقاً؟ حسناً... أنا سعيدة لهذا.. لأنني...

خفف سرعة السيارة ثم انعطف إلى طريق ضيق.

ـ الأمر لا يستأهل هذا النقاش كله. «قال كاميرون».

ـ موافقة.. إن كل ما أريد أن لا تكون لديك أفكار خاطئة.

هز كتفيه ورد بهدوء:

ـ الفتاة الثرية الصغيرة كانت تتسلى.. فكيف تكون لدي أفكار خاطئة؟

ـ ما تقوله سخيف كاميرون!

ـ حسناً رجاءً.. لا تستغليني في أحلامك الخيالية بعد الآن...

ـ أف لك كاميرون... ماذا تعني بهذا؟ أنا لا...

ـ بلى.. ولا أعرف ماذا يدور في هذا الرأس الجميل، ولكنني لا أرغب في التورط بما يجري فيه... أتفهمين؟

اصطبغت وجنتاها بلون رمادي:

ـ لا أريد أن أخيب أملك.. ولكن الخيالات والأوهام التي تتراءى لك معي الآن ستصبح كوابيس بعد انتهاء هذه المهمة.

ضحك ضحكة قاسية:

ـ هذا يجعلنا متعادلين فأنا يا آنسة يورك لم أتُق قط إلى إنهاء مهمة كما أتوق إلى أن أنهي هذه.

سحبت نفساً عميقاً لم تلبث أن زفرته إنما ببطء:

ـ أجل... وأنا كذلك.

فجأة، بدا لها من النافذة، طريقاً.. طريقاً حقيقياً. خفف كاميرون سرعة السيارة، مع أنه لا دليل على وجود سير عليها. وتفحص مرآته بحذر، ثم سار على السطح المعبد... وتمتم:

ـ حسناً.. سنكون في ساغوس قريباً.

ـ ساغوس، أنحن ذاهبان إلى هناك؟

ـ أجل.. إنها بلدة صغيرة جميلة، وهي بعيدة عن الطرقات العامة.

ـ مما يعني أنها آمنة لاصطحابي إليها.

ـ بالضبط... وفيها هاتف عمومي وسوق يمكنك فيه شراء ثياب إذا شئت. ولكنه لن يكون كالأسواق العالمية ودور الأزياء غير أن هذا أفضل الموجود.

ـ إذن، لقد زرت البلدة من قبل؟

ـ إنها أقرب بلدة إلى المنزل.

كانت منقسمة الفكر بين رغبة فضولية بمعرفة المزيد عنه، وبين خوفها من أن يكون أخبرها أكثر من اللازم. ولكن الفضول فاز أخيراً:

ـ هل المنزل ملكك؟

ـ وهل تهمك معرفة ذلك؟

ـ لا.. أبداً.

سارا بصمت دقائق، ثم استدار نحوها:

ـ ساغوس لا تبعد عن هذا الطريق أكثر من ميلين.. حين نصل إليها عليك تركي أستلم زمام الكلام. لا أتوقع أن أجد من يبحث عنا، إنما من الخير ألا يعرف أحد أنك غريبة.

امتد حقل من الذرة يساراً، تعلو سنابله سطح السيارة. وبان من ناحية الطريق الأخرى قطيع من الخراف يرعى العشب الأخضر قانعاً. وتصاعدت الطريق صعوداً، تنخفض أحياناً ثم تلتف حول سفح الجبل، أخيراً انعطفت السيارة باتجاه مجموعة من مبان معممة بالقرميد، تحيط بساحة واسعة معبدة بأحجار سوداء يصطف على جوانبها مقاعد خشبية ملونة، وينبعث منها ألحان موسيقية وقهقهات وصخب.

توقف كاميرون تحت أغصان شجرة جوز وأشار إلى التل:

ـ ها هي.

ردت بصوت هامس:

ـ أنت تمزح.

ضحك:

ـ قلت لك إنها صغيرة. ها هو مركز البريد الذي يُقام السوق عنده

مرة أسبوعياً. إن هذه البلدة تشتهر به، وبوجود الهاتف فيها.

فتح بابها ومد يده ليساعدها:

ـ هيا بنا.. كلما أسرعنا بالاتصال كلما كان ذلك خيراً لنا.

ـ وهذا ما أشعر به.

التقت عيناه بعينيها وأجبرت نفسها على عدم إشاحة وجهها عنه، فهز رأسه أخيراً وقال:

ـ أجل.. أنا على يقين من هذا.

أقفل باب السيارة وسار مسرعاً نحو المرتفع، فقالت وهي تسرع خلفه:

ـ رويدك قليلاً أرجوك أو اتركني.

ـ محاولة جيدة غلاديس.

شهقت:

ـ محاولة جيدة؟

وقف فجأة:

ـ التقطي أنفاسك. سأنتظر، ولكنني لن أتركك.

تنفست عميقاً.. ثم قالت:

ـ لا تكن كثير الشك كاميرون.. فلن أحاول الهرب.

ـ يسرني ما أسمعه.

ـ إلى أين أذهب ومفاتيح السيارة بحوزتك؟

وضع المفاتيح في جيبه:

ـ صحيح... مع قليل من الخطر.. سوف..

وأخرج حفنة من النقود المعدنية من جيبه:

ـ اللعنة!

ـ ما الأمر؟

ـ ليس معي قطعة نقود مناسبة، لأضعها في آلة الهاتف. ألم تستخدمي الهاتف في مكان عام هنا من قبل؟

ردت بكل صدق:

ـ لا.. لم أفعل.

ـ أنسى دائماً كيف يعيش النصف الآخر من البشر، فأنت على الأرجح لم تظهري أنفك الجميل خارج ڤيلا يورك.

ـ ليس دائماً.

وأخذت تدعو الله لئلا يسألها شيئاً عن مدريد أو اسبانيا.

ـ وأراهن أنك لا تعرفين شيئاً عن اسبانيا الحقيقية؟

ـ أعتقد أن بإمكانك قول هذا.

ـ أجل.. هذا ما اعتقدته. حسناً، القطع النقدية ليست مشكلة.. نستطيع الحصول على بعضها من بائع السجائر القريب من مركز البريد. هل أنت مستعدة لمتابعة التسلق؟

تنفست عميقاً:

ـ قد أتسلق جبال الألب لأجري هذه المكالمة!

ـ هذا ما أشعر به تماماً.

وانطلق بسرعة أكثر من ذي قبل. فاضطرت للإسراع حتى تسير إلى جانبه، فلا فائدة من الطلب منه الإبطاء. حسناً إنه متلهف لإجراء مكالمة الفدية ليقايضها بالمال.. وهذا أمر عظيم.. فكلما أسرعت بالعودة سالمة، كلما كان ذلك أفضل... ولكن ليت كاميرون يطلب ما هو معقول، وليت آدم يورك يوافق على الدفع.. وليت...

ـ بوناديلس.

رفعت نظرها بدهشة إلى ولد صغير كان يسد عليهما الطريق، ويبتسم فأجاب كاميرون:

ـ بوناديلس، كوموستاتي؟

ـ بيتو.

بعد ذلك لم تعد تفهم شيئاً، كانت تنقل النظر من الولد إلى الرجل، تصغي إلى حوارهما السريع، تراقب تعابير وجهيهما.. وعرفت من

التواء فمه وبعض الكلمات الإنكليزية التي أطلقها أنه عرف شيئاً غير مرضي. فهمست تسأل:

ـ ما الأمر؟

هز كاميرون رأسه ووقف قرب الولد.. أقال الولد شرطة؟ وخفق قلبها خفقة قوية فهي متأكدة من أنها سمعت لفظة الشرطة التي تتشابه بين اللغتين... الإنقاذ إذن... لكن ما من بهجة في هذا.. بل صورة لكاميرون فيها الدماء والألم... و...

نظر إليها عابساً:

ـ طلبت منك الصمت.

ـ أجل.. ولكن...

أصمتها بريق التحذير في عينيه، فأطرقت تراقبه يعود إلى محادثة أخرى، ثم ضحك كاميرون، ودسّ الولد يده في جيبه ليخرج حفنة من النقود المعدنية، أعطاها لكاميرون الذي أخرج ببرودة قطعاً مالية ورقية واستبدلها بتلك القطع، ثم وقف يداعب شعر الولد:

ـ إنها سرقة في وضح النهار... ميلوغراسياس أميغو.. تشاو...

ـ تشاو سنيور سنيورا.

ـ تشاو.

وعادا إلى السير ثانية، منتظرة أن يقول لها شيئاً.. أخيراً تنحنحت:

ـ كاميرون... ألم.. يذكر الولد.. شيئاً عن الشرطة؟

ـ قال إن دكان بائع الدخان عند أعلى التل، وإن مالكها مريض. لذا فهو مقفل اليوم.

ـ أهناك مركز شرطة هنا؟

ـ ليس هنا بالضبط.. بل في أعلى التل... ما بك غلاديس؟ أنت شاحبة كالأشباح.

ـ أنا.. فكرت فقط...

ـ آه.. أعرف في ما تفكرين. حسناً أقلعي عن القلق. سنجري

المكالمة. . فالولد رجل أعمال شهم. . . تبين أن لديه جيباً مملوءاً بالنقود المعدنية المخصصة للهاتف، فباعها لي بضعف ثمنها.

ـ واشتريتها؟

ـ من حسن الحظ أننا التقينا بهذا اللص الصغير. . . فلا أعرف مكاناً للهاتف على بعد أميال. . . ولم أرغب في أن ترانا الشرطة لأنني لا أثق بهم.

توقف فجأة ينظر إلى وجهها بذهول:

ـ اللعنة غلاديس. شكلك مخيف. . . لا بد أن هناك شيئاً. . . هل أنت مريضة؟ أم الحر هو السبب؟ استندي إلي. . .

ـ أنا. . أنا. . بخير. . فقط. . أنت رجل مدهش كاميرون. . أليس هناك ما قد يمنعك من إجراء المكالمة؟

ـ أتعرضين عليّ شيئاً آنسة يورك؟

أحست باندفاع الحرارة إلى وجهها:

ـ بالطبع لا. . . عنيت فقط. . .

ـ أعرف ما تقصدينه. قلت لك إنني سأجري هذه المكالمة البائسة، وهذا ما سيكون. إننا مع قليل من الحظ سنودع بعضنا بعضاً بعد بضع ساعات.

أشاحت نظرها عنه وقالت بجفاء:

ـ بكل تأكيد هذا ما أرجوه.

بعد دقائق، كانا يقفان أمام غرفة هاتف ضخمة الحجم، تقع في عزلة تامة خارج مكتب البريد، المقفل لفرصة الغداء.

ـ حسناً. . سأجري المكالمة، وأتحدث مع أبيك أولاً. . ثم أترك الكلام لك.

ـ أهناك. . . هل من المفترض أن أقول شيئاً خاصاً؟

ـ لا يهمني غلاديس. قولي ما شئت، ولكن لا تسترسلي في الكلام اليوم بطوله.

ـ أفهم. . أتخشى أن يعرفوا مصدر المخابرة؟

ـ هذا غير محتمل. . أبوك ليس غبياً. . . خطوطه الهاتفية تفحص مرتين في الأسبوع لمنع التنصت، غير أنني لا أحب البقاء في مكان واحد مدة طويلة، فهذا يجلب المتاعب.

تمتمت:

ـ فهمت.

ولكنها في الواقع لم تفهم شيئاً فهي لا تعرف عن الفدية إلا ما رأته في الأفلام. ألا يحذر الخاطفون الضحية من اقتفاء أثر المكالمة؟ ولا بد أن آدم يورك يعرف هذا، ولن يرغب في تعريض حياتها للخطر.

دنت لحظة الحقيقة. فلنفترض أن كل ريبتها خاطئة؟ ولنفترض أن يورك رفض دفع ما سيطلبه كاميرون؟ ولنفترض أنه أخبره بهوية رهينته الحقيقية؟ ولنفترض. . .

كانت غرفة الهاتف أكبر حجماً مما تعرفه في بلادها ومع ذلك كانت أصغر من أن تضم شخصين بارتياح. رأت أن الوقوف في هذا المكان الضيق معه صعب. فقالت:

ـ لماذا لا تدعني أنتظر خارجاً؟ اترك الباب مفتوحاً، وأمسك بيدي إذا كنت لا تثق بي.

ـ لا أثق بك أبداً. . لقد قال لي يورك إنك ستحاولين الهرب حين تستطيعين. . . وهو على حق.

نظرت إليه فاغرة الفم. لا تصدق. .

ـ أتعني. . أنك تحدثت إليه عن هذا؟

ـ لقد وجدت يا غلاديس أن كل ما قاله والدك صحيح، فأنت فعلاً أصعب مراساً مما اعتقد والدك.

هزت رأسها وكاميرون يرفع السماعة:

ـ لكن. . إذا كان يعرفك. . . فسيعرف صوتك. . سوف. . .

توقف كلامها حين التفّت ذراعه حولها.

- ابقي ساكتة وأنا.. حسناً... ابقي ساكتة.

راقبته وهو يضع النقود المعدنية في علبة الهاتف.. لو تحركت لأحدثت كارثة، فقد كانت تحس بجسده الصلب يضغط على جسدها، وبأنفاسه الحارة على خدها... كان يبدو مصمماً... ماذا كان سيحدث لو التقيا في ظروف أخرى؟ في حفلة راقصة مثلاً.. هل كانت ستلفت انتباهه في غرفة محتشدة بالنساء؟ على الأرجح لا.. ولكن ربما كانت هي من ستلاحظه.

رفعت نظرها إليه وهمست:

- كاميرون.. اسمع.. ربما يجب إجراء هذه المكالمة فيما بعد. في الغد مثلا. انتظر حتى الغد.

ولكنه لم يكن يصغي إليها:

- اصمتي! لا أستطيع سماع شيء! لمست وجهه بأصابعها:

- كاميرون! اصغِ إليّ.. ! لن أخبر أحداً عنك.. أقسم فلا تقلق لأنني...

- آلو.. أجل سيد يورك.. أنا ستيف كاميرون. ابنتك بخير.. أجل.. ابنتك... لا أدري لم تبدو دهشاً سيد يورك! قلت لك إنها ستكون آمنة معي.. سأتركك تتحدث إليها بعد لحظة، ولكنني أريد أن أعرف فقط ما إذا كان عليّ أن أعيدها إلى مدريد... أجل.. أنت على حق... واجهتني متاعب لأن الجحيم أهون من مراقبتها، فهي تظن أن الحراسات الخاصة نوع من اللعب.

أخذت الأرض تميد بها... ستيف؟ أيقدم خاطفها نفسه؟ أحست بالغرفة حارة خالية من الهواء، ولكن هذا ليس سبباً للهلس... وها هي تهلس. كانت تصغي إلى الحديث الودي من طرف واحد. كان كاميرون ما يزال يتكلم، مع أنها أصبحت أبعد بكثير عن فهم كلمة مما يقول.. كاميرون ليس خاطفاً.. بل حارس شخصي! هي لم تُخطف.. بل أُنقذت! آدم يورك ليس قلقاً عليها، بل مطمئن لابتعادها عن

الخطر... إنه يقول هذا لكاميرون الآن، هذا ما فهمته من الحديث الذي يقوله كاميرون، الذي كان يضحك.. اللعنة عليه.. كان يقول إن لديها خبرة.. وإنها عبء ونصف، وكان على يورك أن يقول له إن ابنته تحب استخدام اسمها الرديف.. ابنته؟

صاحت غلاديس تمسك السماعة بجنون:

- انتظر لحظة... انتظر لحظة...

نظر إليها مقطباً، ثم شدها بين ذراعيه أكثر:

- على ابنتك أن تتلقى كذلك بضعة دروس في حسن التصرف.

- أظنها سمعتني أقول إننا سنبقى بعيداً بضعة أيام، ولم يسرها الأمر... أجل.. أجل.. أفهمك. حسناً.. ها هي.. غلاديس، والدك يريد التحدث إليك.

أقفل السماعة ليعطيها لها.. وقال:

- أبعدي هذا العبوس عن وجهك.. صدقيني.. لست أكثر منك سروراً.

تناولت السماعة منه ووضعتها على أذنها:

- ها.. ها..

سحبت نفساً عميقاً ثم قالت: «آلو» ولكنها في هذه اللحظة حدقت إلى كاميرون ذلك أن الهامس لم يكن السيد يورك بل جوستين:

- هذه أنا... غلاديس.. أرجوك.. لا تخذليني.. أوهميه أنك تحدثين والدي.. غلاديس.. أرجوك.. أرجوك.. اصغي إليّ لحظة.. حسناً! اصغي فقط.

سألها كاميرون:

- ما الأمر؟ هل تلاشى الخط؟

- لا.. الخط على ما يرام.. أنا فقط.. فقط..

همست جوستين من جديد:

- غلاديس.. سأعطيك أبي إذا كنت تفضلين الحديث معه.. هل

أعطيك إياه؟

ـ لا.. بل أفضل محادثتك.. لماذا لم تخبريني بما يجري.. يا أبي؟

ـ شكراً لك غلاديس. اسمعي.. سأسرع في الكلام.. أعتقد أنك دهشة قليلاً.

ابتسمت غلاديس غضباً:

ـ أجل.. يمكنك قول هذا.

ـ في الواقع نحن دهشون كذلك. ظننا أنك أخبرت السيد كاميرون بهويتك أو هذا ما ظنناه.

ـ ليتك هنا يا أبي. أود رؤية وجهك حين أخبرك بما جعلني أكتم السر. ليتك تستطيع التكهن وليتك تتصور ما شعرت به.

ـ غلاديس اصغي إلي.. أظن أنني أعرف ما يحدث.. فأنا..

ـ أتعرف حقاً يا أبي؟

ـ لا تقولي أبي هكذا.. إنك تقولينها وكأنك تؤنبينني غاضبة.

ـ ما أذكاك يا أبي.

ـ حسناً.. سأدخل صلب الموضوع.. عندما لم نسمع شيئاً منك أو من كاميرون، قلقنا... آه نعرف أنك خائفة.

أغمضت غلاديس عينيها، وأسندت جبهتها إلى جهاز الهاتف، وقالت بخشونة:

ـ هذا كلام لا يفي ما أنا فيه حقه.

ـ أبي يقول ان السيد كاميرون.. من النوع... الحازم. وإنه يتوقع مني ألا أكون متعاونة... وهذا ما أنا عليه عادة بخصوص إجراءات الأمن... وما أحاول قوله إننا بمرور الساعات اعتقدنا أنك تعتقدين نفسك مخطوفة، وتخشين كشف هويتك.. أهذا ما حدث؟

هزت غلاديس رأسها دون أن ترد، لكن جوستين فهمت صمتها:

ـ حسناً.. هذا ما ظنناه.

تمتم كاميرون:

ـ غلاديس.. أنت بخير؟

هزت رأسها دائخة.. يومان من الرعب.. وها هي الأحجية تتكشف. وها هي تتذكر أشياء قالها كاميرون عنها وعن سلامتها؟ وعن افتقارها إلى التعاون، أشياء كانت ساذجة مخيفة عجزت معها عن فهمها... كانت جوستين ما تزال تكلمها وتحثها على شيء.. ماذا؟. على المثابرة على الإدعاء؟ يا الله! لن تتمكن من هذا! لن تستطيع...

ـ سيدوم الأمر يوماً أو اثنين.. أرجوك غلاديس. قومي بهذا التنكر من أجلي. إنها تمثيلية لا ضرر فيها...

ـ لا!

ـ غلاديس.. أرجوك... كل شيء سيكون على ما يرام.. سترين!

همس كاميرون لها وأنفاسه حارة على رقبتها:

ـ غلاديس.. ما الأمر؟

ـ لا.. لا شيء.

ـ إنه ليس مجرماً غلاديس. إنه ليس كما ظننته. أنت آمنة معه!

ـ غلاديس.. لا تفقدي رشدك. انسي أمر الهاتف اللعين.. اسحبي نفساً عميقاً.. هكذا.. هيا.. مرة أخرى...

فجأة، أصبح المتحدث إليها هاتفياً رجلاً ذا سلطة:

ـ آنسة هاردويك، أنا آدم يورك. اصغي إلي بانتباه.. أيتها الشابة.. أريدك أن تواظبي على هذا الإدعاء بضعة أيام أخرى.

أبعدت غلاديس وجهها عن نظرة كاميرون الثاقبة، وهمست:

ـ لا.. لن أفعل.. فأنا...

ـ يعتقد الجميع الآن أن سائقي هزم رجلين من الصحافيين الطامحين مبعداً جوستين إلى مكان آمن منعزل.

التفت أصابع كاميرون على الهاتف:

ـ دعيني أتكلم. ما الذي يجري بحق الله؟ إنك تبدين وكأن شبحاً يكلمك.

ـ لا.. لا.. أنا بخير..

وأكمل الرجل:

ـ ما من أحد يعرف أن جوستين هنا يا غلاديس. أنا وصديقها الشاب نتعارف بشكل رائع.. وهذا ما يسعدها.

همست بصوت أجش:

ـ يسعدها؟ يسعدها؟ وماذا عني ؟ ماذا عن...

ـ لقد قلت لكاميرون ان ليس من الأمان العودة الآن إلى المدينة. وهو يصدقني.

تحول همسها إلى شراسة.

ـ أنا لا أهتم بهذا... أنا لا...

ـ لا أستطيع قول الحقيقة له.. فهو لن يوافق أبداً على استخدامه غطاء.

ـ ربما.. ولكن في النهاية حين تنكشف الوقائع...

ـ سأهتم بهذا في وقته، فهو يجني مالاً وفيراً من العمل معي، ولكنه سيغضب حين يعلم ما فعلته، إنما أنا الكفيل بتسوية الوضع معه لاحقاً.

نظرت إلى وجه كاميرون ثم إلى فمه، فارتجفت حين تذكرت نعومة وحرارة شفتيه على بشرتها.

سمعت رجاء آدم يورك:

ـ أتمي هذا الدور من أجل جوستين.

وسمعت كاميرون يقول: [اختصري بسرعة غلاديس].

ـ أجل.. سأختصر...

ولكن آدم يورك رد عليها: «فتاة طيبة» وأقفل الخط.

* * *

٧ ـ ميناء السّلام

صاحت غلاديس:

ـ مهلاً. أرجوك.

غير أن رنين الخط الهاتفي سخر منها، فحدقت في السماعة ثم علقتها ببطء تحس بأنفاس كاميرون وضغط جسده الخفيف عليها.

ـ المكان حار هنا كاميرون.. أريد هواء نقياً...

فتحت باب الغرفة، ثم خرجت منه تطلب هواء عليلاً، بعد ذاك الهواء الحار. أحست بساقيها وهنتين وبكل شيء حولها يفقد رونقه ومحتواه. فأصدرت تمتمة خفيفة، قبل أن تشعر فجأة بذراعي كاميرون حولها:

ـ هوني عليك... استندي إلي.

ـ أنا بخير..

ولكنها أسندت رأسها إلى صدره وأغمضت عينيها، تتنشق الهواء الحار إضافة إلى دفء رائحة جسده. فتمتم:

ـ هذه فتاتي الطيبة.

امتدت يده تمسك مؤخرة رأسها، وترفع خصلاتها الكثيفة عن عنقها. فتهامس نسيم عليل فوق بشرتها الرطبة.

ـ أهكذا أفضل؟

تنهدت ووجهها على قميصه:

ـ أجل..

ـ إنه الحرّ اللعين.

وخلّ عنه لها. إلا أنه لم يلبث أن أمسكها من كتفيها وأبعدها قليلاً عنه.

ـ فلأرَ إن أصبحت بخير... سأشتري لك شراباً بارداً في السوق. كان يجب أن أعلم أن الطقس سيؤثر فيك. سيمر بك وقت قبل أن تعتادي عليه.

ـ الأمر ليس هكذا..

وصمتت، فقال لها:

ـ لا تجادلي غلاديس... شاهدت تأثير الحرّ من قبل: وجهاً شاحباً، بشرة مبللة.. كما تبدين الآن تماماً.. ستشربين قليلاً من السوائل، ثم أشتري لك ثياباً أخفّ من هذه. وأنت بحاجة إلى قبعة تقي عنك حرارة الشمس. لا تقلقي غلاديس.

لقد مضى الجانب السيء من القصة والآن بدأ الجانب الآخر. انتهى رعب اليومين الماضيين، وتبين لها أن كاميرون ليس برجل عصابات. يا الله.. إن ما حدث جنون بجنون! أرادت أن تضحك وأن تبكي وأن... إنه ليس خاطفها... ولكن من يلومها إن لم تعرف ذلك؟ فلا يتعرض المرء يومياً للأخذ عنوة في سيارة تجوب نصف مناطق بلد أجنبي على يد رجل مجنون مطبق الفم. ولا يحدث كذلك أن يعامل الإنسان دون أقل معاملة إنسانية... أجل.. هذا وصف دقيق لتصرفاته ولإذلاله لها، وإهانته.. كاميرون... أيها الوغد...!

انتزعت يدها منه، وقالت بكلمات باردة كالجليد:

ـ أقوى على السير وحدي... شكراً لك.

ـ أرى أنك تحسنت.

إنه مؤدب أكثر من اللازم. بل هو يهزأ بها. أف له من رجل!

إنه مستأسد يا غلاديس. يتأمر على من هم أضعف منه.. ولقد رميت بنفسك بين يديه فوافق فعلك غرضه. غير أن هذا لن يحدث بعد الآن، فما هو بأكثر من موظف.. من حارس شخصي ليس عنده إلا

حصلات. عليك الآن أن تنسي الخوف!

انتظرت حتى فتح السيارة، وأدارت ظهرها إليه، ثم قالت من فوق كتفها:

ـ احضر لي شيئاً بارداً أشربه.. تأكد من وضع الكثير من الثلج فيه.

امتدت الضحكة من وجهه حتى بلغت شدقيه.

ـ كما تريدين آنسة يورك.

فارتفعت يداها إلى خصرها:

ـ هذا صحيح.. كما أريد.. تذكر هذا جيداً كاميرون!

ـ بعد مكالمة واحدة مع أبيك انقلبت إلى نمرة.. هذا مثير للاهتمام.

ـ لقد جعلتني أعاني الأمرين في اليومين الماضيين كاميرون! وأريدك أن تعرف أن الأمور لن تكون أهون عليك من الآن فصاعداً.

ارتفع أحد حاجبيه بكسل، وقال وكأنها كانت تقول ما يضحك:

ـ حقاً؟.

ـ أجل.. حقاً.. قد نضطر للبقاء بعيداً يوماً أو يومين.

ـ على الأقل.

ـ إنما لن تستأسد علي.. أهذا مفهوم؟

ـ لم أستأسد عليك غلاديس.. كنت أقوم بواجبي من أجل سلامتك.

أصدرت غلاديس حركة غير مؤدبة، فضحك عند ذاك، وتعالى الاحمرار إلى وجنتيها وذلك لا بسبب ما فعلت، بل بسبب ردة فعله. ها قد عاد يعاملني باحتقار مرة أخرى.

ـ يا الله.. إننا نعود بسرعة إلى حقيقتنا.

ـ ليس هناك ما هو مضحك في هذا.. أنا غاضبة كاميرون. غاضبة كل الغضب! وأريد التأكد من أنك... ماذا تفعل كاميرون؟ توقف عن

هذا. . . ! دعني. . .

ولم يكن لكلامها أذن، فقد حملها وفتح باب السيارة ثم رماها في المقعد بسهولة كما فعل أول مرة في المطار. كانت ما تزال متعثرة في جلوسها حين استوى إلى مقعده ليشغل محرّك السيارة والمكيف. قال بنعومة:

ـ استرخي. . . وتمتعي بالبرودة قليلاً. . يبدو أن الحرارة قد بلغت رأسك.

ـ كيف تجرؤ. . ؟ كنت أتحدث إليك كاميرون. . وحينما أتحدث إليك اصغ.

أطبق عليها في لحظة تمسك يده يديها ويقترب وجهه من وجهها. أما هي فحبست أنفاسها وذلك لأنها رأت النار الباردة في عينيه.

ـ اسمعي آنسة يورك. لا أدري ما الذي أشعل غضبك هكذا. فإن حدث لك ما حدث بعد مكالمة واحدة مع أبيك، فاعلمي أنه لن تكون هناك مكالمة أخرى حتى نعود.

ـ لا تخاطبني بهذه الطريقة كاميرون. من تحسب نفسك؟ من. . .

ـ أنا الرجل الذي يمسك حياتك بيده لذلك سأحكمك بالطريقة التي أختارها. .

ـ حياتي ليست بيدك. أنت لست سوى حارسي لا خاطفي. لقد انتهت اللعبة كاميرون. . وما عدت أخشاك.

حدق فيها لحظات، ثم عمّت وجهه نظرة من لا يصدق ما يسمع:

ـ خاطفك؟ أنت لست جادة!

ـ لن أناقشك.

ـ لا أصدق. . هل اعتقدتني. . . ؟ ألهذا بذلت جهدك للهرب مني؟

ردت ببرود:

ـ وهل في الكون من هو قادر على الهرب من يديك كاميرون! إن هذا ما يعرفه جيداً رجل مثلك.

وما أدهشها أن الضحكة طارت عن وجهه وحل محلها القسوة:

ـ أنت على حق. فهذا ليس بجديد عليّ ولكنه يجعلني واعياً لكل خدعة قد تقومين بها آنسة يورك. أقترح عليك أن تتذكري هذا جيداً قبل أن تحاولي القيام بأعمال سخيفة.

استدارت لتنظر إليه بحدة، ثم صاحت وهي تضرب رف لوحة العدادات بقبضتها:

ـ لماذا لم تقل لي من أنت بحق الله؟

ـ فعلت. . أعطيتك اسمي. . ألم يقل لك والدك إنني سأصطحبك من المطار؟

ـ قيل لي إنك سائق جديد ولم يقل إنك حارس.

ـ ربما لم يشأ تكديرك بإخبارك أي شيء آخر.

ـ شيء آخر؟

ـ قيل لنا إن أحداً قد يحاول اختطافك وذلك قبل ليلة من وصولك.

ـ أتقصد أن الرجلين اللذين حاولا إصعادي إلى السيارة لم يكونا من الصحافيين؟

ـ تفكير صائب آنسة يورك. . ولكن ما لا تعرفينه أن الشرطة قبضت عليهما بعد عشر دقائق على رحيلنا. . . لقد اتبع والدك نصائحي، فسياستي تقتضي عدم الإعلان عن محاولات الاختطاف.

ـ اتبع ماذا؟

ـ تعليماتي. . مؤسستي تؤمن الحماية والأمن لكل مصالح يورك في اوروبا. وكنت عرضة للخطر في المطار أكثر منك في الڤيلا، فقد سبقتك سمعتك. والجميع آنسة يورك بدءاً من والدك وانتهاءً بذاك الشاب المسكين الذي جعلته يضيع في الشتاء الماضي، أخبرني أن من المستحيل فرض أمن مناسب حولك.

جوستين. . . انتظري حتى أضع يديّ عليك. . . وأكمل:

ـ لهذا كنت أتوقع كل حيلة قبل أن تقومي بها. . تذكري هذا. . ما

دمت في اسبانيا فسأكون أقرب إليك من حبل وريدك.

فابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ لم.. يكن يجب أن تعاملني تلك المعاملة.

ـ قمت بما يجب عليَّ فعله من أجل سلامتك.

ـ ولكنك.. أرعبتني..

ضحك بنعومة...

ـ وكيف لي أن أعرف أنك تحسبيني خاطفاً؟

ـ اسمع.. سيد كاميرون...

ـ اسمي ستيف.. أعتقد أنه يحق لنا مناداة بعضنا بعضاً بالأسماء الأولى بعد ما تشاركناه... غلاديس.

أحست بالحرارة تلسع خديها.

ـ قال والدي إنك ستشرح لي السبب الذي يمنعك من إعادتي.

تنهد وأغرق نفسه في المقعد الجلدي:

ـ ليس هناك شيء خطير غلاديس. ثمة مشاكل في مصانع أبيك، ولأن الناس أحياناً يفكرون في ارتكاب أعمال خطرة من أجل عملية التفاوض.. اتفقت معه على أن أبعدك لئلا تصبحي جزءاً من المفاوضات.

عضت على شفتها:

ـ أليس.. لديك عمل في مدريد؟ أعني ما دمت رئيس مؤسسة أمنية فلِمَ لم ترسل من ينوب عنك. أليس ذلك ممكناً؟

ـ بالطبع ممكن وأعتقد أن ما اقترحته الآن أفضل لنا.. أنت على حق فلدي العديد من الأعمال. فأنا أؤمن الأمن لعدة شركات ومؤسسات إلا أن يورك الوحيد هو من يتعرض للمشاكل حالياً.

سحبت نفساً عميقاً. ثم قالت بحذر:

ـ حسناً.. من الأفضل أن توضح بعض الأمور كاميرون.

ـ فلأتكهن ما تقصدين.. آه.. نعم. تريدين أن تقيمي في فندق

فخم في سراقوسه كما تريدين سيارة بويك بدل سيارتي البورش الصغيرة هذه. هذا عدا عن رغبتك في التبضع من أفخر المحلات.

رفعت نفسها إلى الأعلى مستقيمة:

ـ أريد منك أن تتذكر وظيفتك «سيد» كاميرون.. أنت هنا لحمايتي وهذا عظيم.. كما هو حتى الآن.. إلا أن هذا لا يسمح لك بالتسلط والاستناد علي كما لا يسمح لك بإذلالي أو...

ـ اوه.. تريدين مناقشة القوانين.. أليس كذلك؟

ـ أجل.. بالضبط..

ـ ولكن هناك قانون واحد هنا يا غلاديس. إذا كان لحياتك قيمة لديك فستنفذين ما أقوله لك فقط. هذه هي القاعدة الأولى والأخيرة... والوحيدة..

صاح وقد أمسكت مقبض الباب تريد فتحه.

ـ اللعنة غلاديس. إلى أين تنوين الذهاب؟

حقاً.. إلى أين؟ هذا ما خطر ببالها حين حطت قدماها على الأرض... لكن هذا يكفي! إذا كان ستيف كاميرون يظن أنه سيتابع إلقاء الأوامر لها.. فهذا جنون!

لقد عانت الأمرين خلال اليومين الماضيين اللذين قضتهما مذعورة تنصاع لكل ما يأمره. ولكنها الآن بعد أن عرفت حقيقة الوضع، عليها التصرف كما كانت ستتصرف جوستين التي ما كانت لترضى بأن يعاملها هذه المعاملة وكأنها عبدة... فليتعود الآن على أن تصدر هي الأوامر إذن.

شهقت وهي تقطع الساحة، حين أحست بيده تمسك مرفقها، فصاحت بغيظ:

ـ اتركني!

فشدها بقوة إلى جانبه وقال بنعومة:

ـ أنت تفتعلين فضيحة علنية... الناس يحدقون فينا.

رفعت نظرها فلاحظت الوجوه المتفرسة بهما للمرة الأولى...
فصاحت:

ـ دعهم يحدقون. وإن أحرجتك نظراتهم فذاك شأنك.

ـ أما كفاك تدللاً وتوحشاً. أتريدين أن يتساءل هؤلاء المتحلقين حولنا عنك؟

صاحت وهي تسير إلى جانبه أمام أكشاك البيع في السوق:

ـ أجل.. سأقول لهم إنك تسيء معاملتي.. سأقول لهم..

ـ ماذا؟ أتقولين لهم إنك جوستين يورك؟ جوستين يورك تساوي وزنها ذهباً بالنسبة لهؤلاء الناس.

توقفت حشرجة ارتباك في حنجرتها فتنحنحت وقالت:

ـ أنت تحاول إخافتي... فهؤلاء أناس شرفاء...

ـ نعم معظمهم شريف، ولكن لا نحتاج إلا لواحد غير شريف بينهم يود التصريح بشيء... الاختطاف يجري إما لوضع سياسي كما هو معتمد، أو لابتزاز مالي.

كان قد انحنى إلى أذنها ليهمس لها بكلماته الأخيرة.. فأحست بحرارة أنفاسه على وجنتيها غير أن ما قاله جعلها ترتجف.. فهي تعرف عن جنون العالم ما يجعلها تعلم أنه قد يكون على حق... وهي إلى ذلك تعرف خير معرفة أن ما مرت به خلال يومين قد لا يكون شيئاً إذا قورن مع ما قد يحدث حقاً. فأبطأت خطواتها، وأسندت نفسها إليه مهزومة تنظر إلى السوق التي بلغاها.

ـ حسن جداً.. لقد أوضحت وجهة نظرك.. سأحسن التصرف.

ـ طبعاً ستفعلين.

ـ كاميرون.. انظر.. أعدك.. سأفعل ما تريد.

ـ حتى المرة القادمة..

تنهدت:

ـ لا.. حتى تعود إلى مدريد.

أمسك بكتفيها وأدارها نحوه، فرفعت رأسها والتقت عيناها بعينيه، ثم قالت بصوت كان المفروض أن يكون مرحاً:

ـ إن أسوأ أمر قد حدث هو أن حارسي خطفني. فكيف لو كان الاختطاف حقيقياً؟

ارتجف صوتها وتلاشى.. وما بدأته بضحكة، انتهى بالبكاء. فراح كاميرون يلعن ويشتم بصوت خفيض قبل أن ينزل يديه للإمساك بوجهها.

ـ غلاديس...

وضعت يديها بين يديه لتبعدهما عن وجهها، ولتقول له إنها على ما يرام، ولكن صوتها لم يخرج. وحدها الدموع انهمرت، فضمها إليه، يهدهدها كطفلة صغيرة تنتحب وبقيت على بكائها هذا حتى ارتدّت أخيراً وهي تضع ظاهر يدها على أنفها قائلة:

ـ لا يمكنك تصور ما... ما كنت أفكر فيه... خاصة في الليلة الأخيرة حين.. حين...

ـ لقد قلت لي إنك ستحاولين الهرب.. اللعنة! وكنت بحاجة إلى الراحة، لأننا كنا مرهقين. إلا أنني لم أكن أعلم ما كان سيواجهنا اليوم.

ـ أجل.. لقد وضح كل شيء الآن ولكن ليلة أمس.. أنا.. أنا..

ـ يا إلهي غلاديس.. أنا هنا لأحميك، لا لأؤذيك.

ـ لم يكن ما حدث خطؤك. فقد جمعت واحداً وواحداً فأصبحت النتيجة ثلاثة. أنت محق.. قلت لي من أنت.. ولم تكن تعرف أن... والذي لم يخبرني عنك شيئاً ولكنني لم أفهم مع أن كل ما قلته لي كان يحثني على الشعور بالطمأنينة.. أتعلم.. أنا أستخدمك منديلاً ضخماً. لقد ابتل قميصك كله.

وضحكت مرتجفة، فأخرج منديلاً من جيبه ووضعه على أنفها قائلاً:

ـ استخدميه.

ابتسمت بعد أن استخدمت منديله:

ـ أحس أنني غبية.. فقد فهمت كل شيء بعكس حقيقته. سمعت كل شيء إلا أن...

ـ صحيح؟ قلت أشياء كثيرة يا غلاديس.. وفعلت أشياء أكثر...

ـ لست مديناً لي باعتذار كاميرون... لقد كان سوء تفاهم فظيع..

ـ أنا آسف لأنك ذعرت. غير أنني لست آسفاً لما فعلته، ولو اضطررت لفعلت ما فعلته ثانية، في سبيل سلامتك حتى وان عنى ذلك ربطك وحجزك ونزع ثيابك عنك..

أشاحت عينيها عنه بسرعة:

ـ كاميرون.. أرجوك.

ـ غلاديس.. اصغي إلي. سأفعل ما بوسعي للاعتناء بك. أتفهمين؟

ـ أجل.. ولهذاقلت إنه سوء تفاهم، وإلا لما حاولت الهرب.

ـ ولكنني لم أسمع هذا عنك.

ـ انظر إليّ، ما سمعته خاطئاً.. أنا لست هكذا.. جوستين.. جوستين غلاديس يورك ليست غبية، أتعلم هذا؟

ابتسم لها:

ـ لا.. إنها ليست غبية.. إنها لا تشبه أبداً ما سمعته عنها.

خفق قلبها بشدة.. ووبخت نفسها تطلب منها الحذر غير أنه استحال عليها ألا تسأله أول ما تبادر إلى ذهنها.

ـ أهذا جيد أم سيء؟

ـ ما رأيك؟

ـ أعتقد أن هذا يثبت أن عليك عدم تصديق كل ما تسمعه.

ـ بما فيه وعودك بحسن التصرف؟

ـ يجب أن تتعلم كيف تفرق بين الحقيقة والكذب. كاميرون..

صدقني.. لقد اكتفيت العمر كله من الرعب الذي ولّده اعتقادي بأني مخطوفة.

ـ ولكنك لم تكوني دائماً خائفة غلاديس.

ـ لا.. وصدقني، لن أحاول الهرب.

ـ وإذا وثقت بك وخذلتني...

ـ أجل؟

ـ سنندم على هذا معاً.

كان هواء آب الحار ساكناً سكوناً كادت معه تسمع أنفاسها. وكانت كلماته عالقة بينهما فتساءلت لحظتئذ متى توقفا عن الكلام عن قواعد الحراسة الخاصة. فالكلام الذي كانا يتناولانه بالحديث في الدقائق الأخيرة، لم يكن له علاقة بالموضوع. إنما يجب أن يكون هكذا.. إنه ستيف كاميرون.. وهي.. من المفترض أن تكون جوستين يورك.. من المفروض أن تكون...

فجأة أدركت أنها يجب أن تخبره الحقيقة. الآن.. وقبل أن يفوت الأوان وقبل أن تصل إلى نقطة اللارجوع.

همست:

ـ كاميرون..

إلا أن بقية الكلمات ضاعت في حنجرتها... إنها تغرق... تغرق... في اللهيب الفضي المحترق عميقاً في عينيه.

ـ تعالي إلى هنا. «تمتم»

مرت أصابعه في شعرها وهو يجذبها إليه. رفعت رأسها إليه وعيناها مغمضتان، فانحنى ليلمس وجنتيها، فأحست بلهيب عاطفته يحرقها. عندما أبعدتها يداه عنه، ترنحت للحظات، ثم فتحت عينيها فإذا هو يبتسم لها بطريقة جعلت قلبها ينقلب رأساً على عقب. فرفعت يدها إلى فمها، ثم طبقت أصابعها على شفتيه.. فقال:

ـ حسناً.. لقد اتفقنا.. وختمنا الاتفاق.

ـ كاميرون. . .

شهقت حين أحست بشيء يصدمها وهو حمار وضع له صاحبه قبعة قش فوق أذنيه، مدّ رأسه بينهما. فضحك كاميرون:

ـ أعتقد أن هذا الشاب يحاول أن يقول إنه شاهد على الاتفاق. صحيح أيها الشاب؟

نهق الحمار بشدة، فابتسمت غلاديس:

ـ ما يحاول أن يقوله لنا إنك وعدتني بشيء بارد أعتمره، شيء كهذه القبعة التي يعتمرها. . مثلاً.

ابتسم كاميرون ممسكاً بيدها بين يديه قائلاً:

ـ تعالي. . قد نضطر إلى المرور في السوق كله، ولكننا لن نغادر ساغوس قبل أن نجد لك قبعة كقبعة رفيقك هذا. . . أعدك.

* * *

٨ ـ الجنة على الأرض

كانت غلاديس تدندن جذلى وهي تتحرك بين المغسلة وبين الطاولة الخشبية في المطبخ. . فشمس المساء تعمّ المنزل الذي كانت فيه حالياً تغسل الخضار والفاكهة التي انتشرت فوق الطاولة ونغمات طائر شاد تتناهى إليها من الباب المفتوح، مخففة من وقع تصادم أدوات المطبخ المعدنية متمازجة مع أصوات اللعنات التي كانت تتصاعد من تحت غطاء محرك البورش المرفوع.

أضافت بعض الفطر إلى كمية الخضار في المغسلة، ثم فتحت عليها الماء البارد. . . حساء الخضار الذي ترجو أن يعجب كاميرون.

يعجب كاميرون. . يا إلهي كم تغير الوضع. . منذ ساعات ما كانت لتكترث أبداً بما يعجبه أو لا يعجبه ولكن من الغريب أن يكون لمكالمة صغيرة ذاك التأثير كله. فقد بدّلت المكالمة كل شيء. . نعم كل شيء دون استثناء.

يا الله. . الطقس حار!

مسحت جبينها بظاهر يدها. . كانت الليموناضة دائماً شراب عمتها الصيفي المفضل ولقد اشتريا السكر والليمون الحامض من السوق في ساغوس. سيحب كاميرون الليموناضة، ذلك أن الجميع يحبها وهوالآن دون ريب عطشان، فقد أمضى وقته منذ وصولهما يحدق في محرك السيارة، التي ما يزال على مقعدها الخلفي المعلبات والثياب لكليهما وإضافة إليها جميعاً قبعة القش التي اشتراها لها.

قطع ظل داخل الغرفة عليها وحدتها فرفعت رأسها إلى كاميرون الواقف بالباب عارياً حتى الوسط. هناك بقعتا شحم على سرواله الجينز وخط زيت رفيع على أنفه وخديه، وعرق لامع على وجهه. تنهد وهو يتكىء على قائمة الباب:

ـ لا بد أن الحرارة مئة درجة.. وهذه السيارة اللعينة قررت التعاقد مع مرض مزمن.

ـ ألم تعرف ما بها؟

تنهد يمسح عينيه بساعده:

ـ ثمة عطل ما فيها، لا أدري ما هو.

تناول منها الكوب الذي قدمته له مبتسماً:

ـ شكراً.. أحس وكأنني قطعت الصحراء لتوي.

رفع الكوب مرتشفاً ما فيه:

ـ يا إلهي يا امرأة.. أهذه ليموناضة.

ابتسمت بسعادة:

ـ جيدة؟

ـ جيدة؟ إنها أقرب إلى الكمال. ثمة أشياء لا يمكنك الحصول عليها إلا في بلادي... كالنقانق والذرة المنفوشة والزبدة اللذيذة والليموناضة. إن طعم هذه الليموناضة كطعم بساتين الليمون في أريزونا المروية بنهر «سولت».. أهناك المزيد؟

ملأت كوبه من جديد ضاحكة:

ـ الإطراء جميل... ولكن الليمون اسباني.

ارتشف نصف ما في الكوب ثم ابتسم:

ـ غير أن المرأة التي أعدته إنكليزية وهنا يكمن الفرق.

بعث الإطراء البسيط إلى نفسها بهجة عارمة فأشاحت عنه مرتبكة.

ـ ماذا ستفعل الآن؟ ألن تتمكن من إصلاح السيارة؟

ـ لا.. فهي بحاجة إلى كراج وآلة رافعة وخبرة واسعة لا أملكها.

الخطأ خطئي إذ كان علي أن أعرف أن قيادة مثل هذه السيارة الرقيقة الصغيرة على طرقات وعرة بسرعة عالية أكثر من طاقتها. أيمكن أن تخرجي الخضار من المغسلة لأغسل يدي؟

ـ بالتأكيد.. سأضعها في الطست. حسناً، المغسلة لك.

ـ شكراً لك..

راقبته وهو يضخ المضخة اليدوية حتى انهمر الماء من الأنبوب، فأغمض عينيه، وسحب نفساً عميقاً قبل أن يدس رأسه تحت المياه الباردة.

ـ يا الله.. ما أشد برودتها!

ضحكت غلاديس:

ـ ولكنها مفيدة لك. هذا ما كانت تقوله عمتي نونا.

رفع كاميرون رأسه من تحت الماء لينظر إليها من خلال شعره المبلل:

ـ وماذا يعرف فرد من أفراد عائلة يورك عن الماء البارد المستخرج من البئر؟

لا شيء!.. ابتسمت غلاديس وردت بسرعة:

ـ قد يدهشك أن تعرف أن نونا عمتي كانت الابنة الضالة في العائلة. لذا لا تجد أحداً يتحدث عنها.

ضحك وهو ينحني ثانية فوق المغسلة تاركاً الماء ينساب على رأسه وكتفيه:

ـ آه.. هكذا إذن.. أعتقد أنه مسموح لكل عائلة بفرد ضال. اعطيني الصابون لو سمحت.

أعطته ما طلب، ثم استندت إلى الطاولة وذراعاها معقودتان، تراقبه يرغو الصابون ويضعه على رقبته ووجهه.. تنسين دائماً الدور الذي تلعبينه، عدت تفضحين أمرك، كدت تقولين له ما تعرفين عن المضخات والآبار وعن المنزل الربيعي الريفي... ما أطول الساعات

التي قضتها في طفولتها الوحيدة. تقف قرب كومة حطب، خلف المنزل الريفي تلعب في ظل جدرانه الحجرية الباردة... إنها ذكريات أوقات ممتعة أمضتها في ذاك المنزل الذي هو الآن غير مستخدم ولكنه ما زال يحوي تلك البئر وتلك المضخة التي ما تزال تعمل لتغدق أعذب مياه وأصفاها. كانت العمة نونا تفضلها على ذاك الماء الجاري من حنفية المطبخ، أما العم ماثيو فكان يصر على أن الماء لا يختلف منظره أما طعمه فنعم. ولتلك المياه التي كانت تحبها عمتها طعم السواقي المظلمة الغائرة تحت الأرض وهي كهذه المياه التي جعلت لليموناضة الطعم ذاته تقريباً.

ـ هل هناك منشفة قريبة هنا؟

هزت رأسها ورمشت بعينيها لتركزهما على كاميرون الذي قال لها مبتسماً:

ـ كنت سارحة في أفكارك آلاف الأميال.. بدوت قانعة سعيدة حتى كرهت أن أناديك لئلا تعودي إلى الحاضر.

ابتسمت غلاديس وأعطته قطعة قماش سميكة وجدتها في أدراج المطبخ:

ـ كنت أفكر في جمال هذا المكان. إنه منزل قديم رائع شهدت جدرانه الحجرية أجيالاً من الحياة.

نظر إليها من فوق المنشفة:

ـ منزل قديم رائع؟ بالأمس كان.. ماذا سميته؟ زريبة؟ أليس كذلك؟

ـ لم أكن أعني. فقد بدا لي مخيفاً.. وأنت كذلك.

ـ أما اليوم فكل شيء مختلف.

هزت رأسها مبتسمة:

ـ نعم.

لحقت عيناها بالمنشفة التي كانت تمر على عنقه وكتفيه ووجهه،

إن لكاميرون جسداً قوياً متناسقاً، وحركاته رشيقة طبيعية، جعلتها تتساءل عما إذا كان يتدرب على رفع الأثقال أو يمارس رياضة الركض ليحافظ على رشاقته. الجميع يقوم بهذه التمارين. ولكن كاميرون ليس كالجميع.. إنه ليس كأي إنسان عرفته من قبل. إنه...

وسألها يقطع عليها أفكارها:

ـ هل نسيت بقعة شحم؟

تعالى الاحمرار على وجهها..

ـ آسفة؟ كنت أفكر في... السيارة التي قلت إنك لن تستطيع استخدامها.

ـ لم أقل إننا لن نستخدمها.. فلا تقلقي.. لسنا عالقين هنا.

ـ لم أعنِ هذا.. أنا...

تنهد ورمى المنشفة على الكرسي:

ـ انسي الأمر.. لم أشأ إزعاجك ولكنني متزعج من نفسي لأنني لم أفكر ملياً في استخدام سيارة قوية. فأنا لن أستطيع قيادة هذه السيارة الصغيرة إلا ببطء شديد وليس علينا إلا أن نأخذها إلى سارقوسه غداً لنضعها في كراج ثم نستأجر سيارة جيب أو رانج روڤر..

التفتت إليه بحدة:

ـ سارقوسه؟ حقاً؟

ضحك:

ـ حقاً!

ـ اوه هذا أمر رائع.

ـ اوه غلاديس. لا تقولي إنك لم تزوري سارقوسه وبرشلونة قبل الآن.

ها قد أعدت الكرة ثانية... يا لزلة اللسان ما أقبحها! إن جوستين تعرف اسبانيا كلها.. فكري غلاديس. فكري في ما قالته لك جوستين عن عائلتها؟

ـ هاجرت عائلتنا من اسبانيا منذ ثلاثة أجيال، وكان اسم العائلة وقتذاك يوركي.. كما يقول والدي.. يقول إنهم لم يستطيعوا تحمل العيش في مدريد.. وهوالآن يحاول إعادة التاريخ، فهو يعتقد أن اسبانيا كلها تبتدىء في مدريد وتنتهي فيها.

جذب كاميرون كرسياً عن الطاولة وأداره ليضعه بين ساقيه قبل أن يجلس عليه عاقداً ذراعيه فوق ظهر الكرسي:

ـ أنت لا تشبهينه أبداً.. أتعلمين أنك تتحدثين عن والدك وكأنه شخص غريب.

احذري غلاديس.. احذري!

ـ نحن لا نتشابه كثيراً... هذا كل شيء.

ـ أجل.. لكن هذا أمر مختلف.. إنه...

ـ لم نمضِ وقتاً طويلاً معاً.. أنت تعلم.. فأعماله في كل مكان وهو يسافر كثيراً.

ـ وأمك ماتت عندما كنت طفلة.

هذا صحيح على الأقل. إنه الرباط الوحيد الذي يجمعها مع جوستين:

ـ نعم.. ماتت بحادث سيارة.

وتلاشى صوتها.. فالحادث الذي تذكره حرمها من والدها كذلك ولكنها لن تتمكن من البوح له وإن كانت تشعر الآن برغبة في ذلك. أرادت أن تقول له إنّها كانت وحيدة خائفة حتى جاءت العمة نونا والعم ماثيو، زوجها، إليها.. ولكنها اكتفت:

ـ لقد.. كان أمراً قاسياً.

ـ أستطيع تصور هذا.

ـ أعلم أن الأمر يبدو سخيفاً، ولكنني إلى الآن ما زلت أشعر بأنني أنتظر عودتها..

هز كتفيه وقال بصوت يخلو من التعبير:

ـ أما أنا فلم أنتظر. فقد تركتني أمي في السابعة عشر، وكنت قبل أن تتركني سنوات أتوقع رحيلها.

نظرت إليه مستغربة، إنها المرة الأولى التي يخبرها بما هو شخصي عن نفسه.

ـ أتعني أنها لم تمت في حادثة؟ أكانت مريضة؟

ضحك بحدة:

ـ بطريقة ما.. القليل من الشيئين معاً. في الواقع كنت أنا الحادثة!

ـ ماذا تعني؟

ـ كنت رقماً في إحصاء وطفلاً من بين أطفال ولدوا من أمهات مراهقات لم يعرفن الزواج. كان هذا منذ سنوات طويلة حينما كان إنجاب ولد بغير زواج أمراً مستهجناً في هوليود.

جلست غلاديس في المقعد المقابل له:

ـ ليس منذ سنوات طويلة.

ـ منذ أربع وثلاثين عاماً، أحياناً أحس بأن المدة عشرة أضعاف.

ـ وهل مرضت أمك؟

ـ كان مرضها طفلها الذي لم تكن ترغب في إنجابه أصلاً والذي تركته وتخلت عنه.

ـ وبعد أن تخلت عنك؟ ماذا فعلت؟

ـ كان ما فعلته درساً قاسياً تعلمت فيه أن الإنسان إن لم يعتن بنفسه لن يجد من يعتني به.

ـ أنت لا تقصد هذا.

اشتدت أسنانه البارزة بلا رحمة.

ـ بل أقصده أشد القصد!

ـ ولكنك كنت صغيراً ولا بد أن هناك من كان يهتم بك...

بقي يبتسم تلك الابتسامة الغريبة، وأجاب:

ـ نعم. كان هناك امرأة وهي تلك التي كانت تملك الغرفة التي كنا

نسكن فيها... كانت امرأة عطوف. قالت لي إن إيجار الغرفة مدفوع شهرين. وبعد ذلك.. اللعنة.. كنت أكره ذلك المكان اللعين البارد في الشتاء والحار في الصيف الذي كان يطل على باحات منشور فيها الغسيل في كل زاوية منها. إنه ليس ما اعتدت عليه، أليس كذلك؟

تذكرت مزرعة عمتها وأجابت:

ـ لا على ما أعتقد.

ـ حسناً.. ذاك كان كل ما لدي.. إن أمي في الواقع لم تهجرني تماماً بل انتظرت حتى أصبحت في الصف النهائي من دراستي مع أنها هددتني بالترك منذ أن كنت في العاشرة.

اقترب من المغسلة وظهره إليها. فودت لو كانت تقف إلى جانبه حتى تلمسه، ولكن شيئاً ما في احديداب ظهره حذرها من الاقتراب.

عندما طال صمته قالت:

ـ كنت في السابعة عشر...

ـ يا الله. لم يكن ما حدث نهاية العالم. فقد بقيت في تلك الغرفة حتى نهاية الإيجار، أفتش عن طريقة أعيش فيها.. ولم أجد شيئاً. أخيراً ركبت الباص والتحقت بأقرب ثكنة عسكرية.

ـ ألا يجب أن تكون في الثامنة عشرة حتى يقبلوا طلبك؟

ـ هناك دائماً طرق للالتفاف على القوانين.. فكذبت بشأن عمري، وأظن أن الضباط عرفوا بكذبي ولكن حرب فيتنام كانت تبتلع عدداً لا يحصى من الشباب، لذا لم يكن هناك من يدقق كثيراً.

ـ أرسلوك إلى هناك؟ إلى فيتنام؟ لقد قرأت أشياء... وسمعت أشياء.. أكان الأمر سيئاً؟

جعل رنين ضحكته الهادئة الباردة، الشعر في رأسها يقشعر:

ـ كلمة سيء لا تفي ما شهدته حقه. كانت الحياة هناك وكأنك تفتشين عن نفسك في أحشاء جهنم...

كان يواجهها متغضن الوجه من الألم، لكن عينيه لم تكونا تنظران

إليها.

ـ هل رأيت في منامك يوماً كابوساً لم تستطيعي الاستيقاظ منه رغم علمك بأنه كابوس؟

ـ لماذا لم تقل لهم إنك دون السن؟ لماذا كذبت؟ ما كان على الجيش أن يفعل بك هذا!.. إنهم...

رفع رأسه بحدة:

ـ أخذ الجيش طفلاً خائفاً نحيلاً.. لا يملك شيئاً.. وجعل منه رجلاً... علمني معنى الشرف والثقة، وأشياء لم تكن موجودة في العالم الذي جئت منه.. يا الله... كان شرفي كل ما أملك!

ـ ولكن كان هناك ظروف تخفف عنك.

ـ ما من ظروف قد تخفف عن المرء حين يتعلق الأمر بفخر الرجل.

وتذكرت: إذا وثقت بك وخذلتني... رنّ صدى كلماته، وأعاد الرنين إلى تفكيرها...

ـ كاميرون.. أحياناً هناك أشياء..

وارتجف صوتها فصمتت.. كفاك قلقاً. إن عقدة الذنب هي التي تجعلك تشعرين بأن في كلامه اتهاماً.

ـ أعني أنّ هناك أشياء يجب أن تنحيها قليلاً.. فالأشياء ليست دائماً سوداء وبيضاء. فهناك أحياناً أسباب...

ـ أسباب؟ أعذار؟ أي حجج..

سحب نفساً عميقاً ثم ابتعد عنها متوتراً.

ـ ستيف؟

ـ يا إلهي.. لا بد أن السبب هو الحر، فأنا لا أضجر الناس بقصة حياتي.

ـ لم تكن مضجرة... ولكنني أتمنى يا ستيف..

ابتعد عنها قائلاً بصوت رقيق:

ـ تعجبني الطريقة التي تنطقين بها...

ـ ماذا؟

ـ اسمي.. ستيف. دعيت كاميرون سنوات طويلة ما عدت أذكر عددها، حتى نسيت أن لي اسماً آخر.

سحبت نفساً عميقاً:

ـ إنه.. إنه.. اسم جميل.. له رنين يجعلني...

وتوقف صوتها ليعمّ صمت لا يقطعه سوى أزيز نحلة تطوف خارج النافذة. أخيراً أشاح كاميرون عينيه عنها وقال:

ـ حسناً؟.. ماذا لدينا للعشاء؟

ـ عشاء؟

كان هذا آخر ما توقعت أن يقوله.. فرد ساخراً:

ـ هل يا ترى الفتاة الصغيرة الثرية لا تجيد الطبخ.

ـ لا أعرف شيئاً عن الفتاة الصغيرة الثرية المسكينة، ولكن إذا سألتني عما إذا كنت أجيد الطهو فالرد هو نعم.

ـ عظيم.. وأنا جائع.

بدا لها متعباً، فهناك ظلال سوداء حول عينيه، وخطوط عميقة حول فمه.

ـ ستشعر أنك أفضل حالاً بعد حساء الخضار.. فلدينا كل ما نحتاج إليه...

رفع يديه ضاحكاً وكأنه يستسلم:

ـ حساء خضار؟

ـ نعم. طعام فرنسي مكون من خضار متعددة مطهوة مع البندورة والبصل و... لا تنظر إلي هكذا ستيف.. إنه طبق لذيذ.. حقاً.

ـ اسمه مشكوك فيه، أما الوصف فأسوأ، أتقصدين يخنة الخضار؟ لا.. شكراً لك آنسة يورك.. سأقلي بيضاً لي..

صاحت بحزم تعطيه سكيناً:

ـ سيعجبك.. اجلس وقطّع البصل.

تنهد ستيف وجلس قبالتها:

ـ حسناً.. يجب أن أجرب شيئاً ولو مرة. أين تعلمت تحضير هذا الطبق؟ في المدرسة الفندقية؟

ضحكت وهي تقطّع الفطر:

ـ بل في كتاب «الطبخ المنزلي». هيّا تعال ساعدني.

عملا بصمت حميم بضع دقائق لا يقطعه إلا تغريد العصافير خارج النافذة، وهمس نسيم الصيف الحار. نظرت غلاديس إليه، فرأته عابساً يركز اهتمامه على تقطيع البصل وكأنه يجري عملية جراحية.. كانت هذا الصباح فقط، مذعورة حتى الموت من هذا الرجل، وها هما الآن يحضران معاً وجبة في جوّ يبعث إلى قلبها سعادة عامرة. سألها مبتسماً:

ـ فيم تفكرين؟ تبدين كقطة سرقت الجبنة لتوها.

ردت بحياء:

ـ كنت.. أتساءل فقط.. كيف انخرطت في سلك تأمين الأمن للناس؟ لا أعتقد أن هذا يدّرس في الجامعة.

ازداد عرض ابتسامته:

ـ ولكنهم يدرسونه في الجيش، خاصة في القوات الخاصة.. في «القبعات الخضراء».

ـ فيلم من تمثيل جون واين.. هه؟

ضحك ستيف:

ـ أجل.. شيء يشبهه.. ولكن الأمن كان حقلاً ينمو حين خرجت من الجيش.. لذلك استلمت مدخراتي وتعويضاتي واستأجرت مكتباً مؤلفاً من غرفة واحدة في شارع «دل برادو» في مدريد.

ـ عنوان قيد لجندي سابق سيد كاميرون.

ـ أنا جندي وجد مدريد مكاناً مناسباً كأي مكان آخر... كان يجري فيها أشياء غريبة فسارت الأمور معي على أتم وجه وقد حدث

شيئاً فشيئاً أن أصبح لي مكاتب في أربعة بلدان.

ـ وما زلت متواضعاً، وكفوءاً.

ـ في الواقع، يذهلني ما أنا عليه.

ـ أعتقد أن الناس بحاجة إلى من يحميهم؟

ـ إن الجرائم في العالم تتفاقم كثيراً للأسف ولذلك تشتد حاجة الناس إلينا.

ـ مثل الآن؟

ـ بالضبط ولكن مجال الأمن غدا معقداً.. أعتقد أن والدك أبعدك كثيراً عن حقائق الحياة.

وقفت بسرعة ووضعت الخضار المقطعة في الإناء:

ـ أنا لا أعرف كثيراً عن هذه الأمور.. أعتقد.

ـ حسناً.. لا ألوم... فما أوجه الحياة كلها بمرضية. ولكن، لو كنت تعرفين شيئاً عن الأزمات السياسية في العالم، أو نوع الحروب الصناعية الجارية، لما عاملت حرسك أو تعاملت مع أمنك بهذا الاستهتار.

وقف واجتاز المسافة الفاصلة بينهما ثم قال:

ـ هاتِ.. دعيني أشعل الموقد.

تناول علبة الثقاب من يدها وانحنى فوق الموقد يشعله، ثم أخذ منها الوعاء ووضعه على الموقد قبل أن يردف:

ـ الحقيقة.. لولا سمعتك الشهيرة في مخالفة الأوامر، لما أوليت هذا العمل اهتمامي الخاص.

ـ اهتمامك الخاص؟ ولكنني لا أستطيع تصورك خلف مكتب.

ضحك:

ـ لا.. وأنا لا أتصور نفسي وراءه، فأنا أقضي معظم أوقاتي بين أنياب العمل ولكنني عادة لا أقوم بمثل هذه المهمات. أما زبائني فمعظمهم شركات من القارة الأميركية لها مصالح في اوروبا وولع

خاص بالسرية.. وهذا لا يعني اضطراري للتلاعب ببعض الألعاب الإلكترونية الثمينة.

ـ أوَ تستخدم كاميرات كالتي تراها في المصارف؟

لمعت أسنانه البيضاء:

ـ أعني أننا نملأ غرف الاجتماعات وغرف النوم بأجهزة تنصّت بحجم الحشرة أو رأس دبوس، وندس أجهزة بث لا يتجاوز حجمها ظفر الإصبع، ونخفي أجهزة كشف صوتية في الزوايا المظلمة.. و...

ـ يا رباه! وكأنني أرى جيمس بوند!

ـ أو وكالة استخبارات.

ـ أنت تمزح.

ـ جنّدت المخابرات قسماً منا حين كنا في فيتنام ووجدونا على ما أعتقد بارعين ماهرين. عرضوا عليّ وظيفة.. يا إلهي! هاأنذا أعود من جديد. ماذا فيك حتى أفتح قلبي وأسرد قصة حياتي البائسة؟

ابتسمت غلاديس:

ـ لا تتوقف الآن! أنا مذهولة بكلامك. لم أعرف أحداً حتى الآن يمتهن مهنتك في التجسس.

ـ ولكنهم لا يحبون استخدام هذا الاسم.

ـ هل شاركتهم العمل حقاً؟

ـ أجل.. كنت صغير السن حين اشتركت معهم إلا أنني بعد سنوات اكتشفت أنني لن أقدر على المثابرة فاستقلت.

ابتسمت غلاديس:

ـ أنت لست جيمس بوند إذن.. بل دونكيشوت.

ضحك كاميرون.

ـ بعد استقالتي ـ وذلك حين كنت في السادسة والعشرين من عمري ـ بتّ بلا عمل، فحاولت متابعة دراستي الجامعية إلا أن الدروس كانت بعيدة عن واقعي. فكان بعد ذلك أن رحت أبحث في نفسي عن العمل

الذي أبرع فيه فاتصلت ببعض من التقيت بهم خلال عملي. . .

ـ وها أنت. . في بيت مزرعة في جبال غوادرامة الشرقية.

ـ أجل. . هاأنذا في بيت المزرعة الذي أملكه في جبال غوادرامة أواسط اسبانيا. .

ـ أهو ملكك حقاً؟

ـ اشتريته منذ ثلاث سنوات حين كنت في سراقوسه أقوم بمهمة.

ـ لا ألومك على حبك له. . البيت والتلال والعزلة. . .

ـ أنت على حق. . . إلا أنه لم يكن في دوافعي ما هو شاعري بل محض أمني، ذلك أنني أحتاج أحياناً إلى مكان أختبىء فيه وقت الطوارىء.

ـ وماذا يسمون المنزل الآمن؟ مخبأ جيمس بوند؟

ضحك:

ـ ربما. . فكرت في بيعه مرة منذ بضعة أشهر. . إلا أنني مسرور لأنني لم أبعه، فلو بعته، لما كنت الآن هنا. . . أضجر امرأة جميلة بقصة حياتي.

ـ أنا؟

خرج صوتها همساً. . فنظر حوله، ثم ابتسم:

ـ لا أرى غيرك في الغرفة. . أترين أحداً؟ أنت لغز جوستين غلاديس يورك. . . تبدين أحياناً بريئة كل البراءة فهل أنت واثقة بأنك الفتاة ذاتها التي أعلنت عن رغبتها في المشاركة بالرقص في كل بركة لها نافورة في عواصم العالم أجمع؟

ـ صحيح. . أقلت أنا هذا؟

ضحك ستيف:

ـ لقد عرفت هذا من ملفك. . . إلا أنك لا تشبهين تلك الفتاة.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما ببطء، بعد أن مد يده يتلمس خدها. . قالت مقطوعة النفس:

ـ هذا يثبت أن الأشياء لا تبدو كما تظهر وأن الأشياء ليست بيضاء وسوداء دائماً.

تصاعد من ورائهما صفير الطنجرة التي انسكب ماءها المغلي على الجانبين ملامساً النار. . أمسك ستيف بقبضة الوعاء، وأرجعه عن النار متنسماً ما فيه بتلذذ. وقال برزانة:

ـ حسناً. . أنت محقة.

نظرت إليه بدهشة:

ـ أنا محقة؟

ـ لا تبدو الأشياء كما تظهر كما لا تكون دائماً بيضاء وسوداء. على الأقل بالنسبة للطعام. . فقد يبدو حساء الخضار غير لذيذ ولكن رائحته رائحة الجنة.

* * *

٩ـ حب تحت المطر

تلاشى صوت مايكل بولتون تاركاً الصمت يطبق على السيارة، فسارع كاميرون يمدّ يده لإبدال الشريط بآخر. عندئذ ابتسمت غلاديس فقد تناهت إليها موسيقى كلود ايبوسي، الموسيقي الفرنسي الشهير، الذي تنسجم موسيقاه مع اليوم الرمادي القاتم، المنذر بالمطر، الذي استقبلهما هذا الصباح... وقالت له:

ـ يعجبني ذوقك في الموسيقى كاميرون.

ـ كنت أفكر في الشيء ذاته عنك آنسة يورك... متعبة؟

رفعت ظهرها قليلاً وارتسمت بسمة حرج على فمها:

ـ أجل... قليلاً.. مع أنني لا أعرف السبب. كيف أكون متعبة وقد نمت اثنتي عشرة ساعة متواصلة؟ يا للغرابة!

وأرجعت رأسها إلى مقعد السيارة، تراقب المساحتين اللتين تتحركان لردع رذاذ المطر المتساقط.

ـ كانت عمتي ستصف حالتي بلفظتي البلادة والكسل.

ـ بت أحب رؤية عمتك هذه التي تبدو لي سيدة بكل ما للكلمة من معنى.

ـ ستعجب بها، وهي ستعجب بك.

مد يده ليمسك يدها بخفة:

ـ أحسبك تشبهينها. همم؟

هل أنت راضية غلاديس؟ وردّت بحذر:

ـ ربما.

ـ أين تعيش؟

ـ في بريطانيا.

ـ ترى أين في بريطانيا؟ هل سأحزر؟

ضحكت متسائلة عما إذا كانت ضحكتها تبدو مصطنعة:

ـ هيا كاميرون.. دعك من لعب دور العميل السري. ما هذا؟ تحقيق أمني؟

ـ إنه ما يسمى التعرف إلى الشخص بالطريقة الفضلى. ألم تلاحظي أنني سردت لك قصة حياتي وما زلت أنا الغبي لا أعرف عنك شيئاً؟

ـ بل تعرف عني كل شيء.. لديك معلومات وافية في ملف داخل درج من أدراج مكتبك. أليس كذلك؟ فماذا تريد أكثر؟

ـ المعلومات التي تحدد لنا شخصية الزبون، تكون اصطناعية في الغالب... وما ورد عنك في الملف يتناقض وما أراه.

طعنتها الغيرة فجأة وبحدة.. هذا مؤلم.. توقفي غن هذا! هل أنت مجنونة؟ إنه يظنك جوستين يورك.. فهل تغارين من هذا؟. سألته حذرة:

ـ ماذا تعني؟

ابتسم:

ـ يقول الملف إنك رقصت في بُرك عامة.. ولكنه لم يقل انك تعرفين قصائد أدوين روبنسون مثلاً، أو أن بإمكانك طبخ حساء الخضار الفرنسي اللذيذ.. أو أنك تبكين حين تسمعين أنغاماً غجرية تعزف على الكمان...

ضحكت غلاديس بنعومة:

ـ لم أكن أبكي، بل كنت أضحك، فأنا لم اسمع مثل هذه الأنغام الغريبة من قبل.. بماذا قلت إنها برنامج يوغسلافي؟

ـ هل تمتعت حقاً ليلة أمس؟

ـ كانت سهرة رائعة حتى غفوت. . لا أصدق ما جرى لي. أحقاً غفوت وأنا جالسة؟

ـ يا إلهي يا امرأة. . سألتني هذا خمس مرات على الأقل. . ما هي الأسرار الرهيبة التي تخشين أن تبوحي بها أثناء سباتك؟

ـ لن أطيل السهر بعد اليوم.

ـ أؤيدك. فمن غير الجدير بسمعة الرجل أن يحمل امرأة إلى الفراش، ويمددها فيه، ثم يمضي بقية الليل نائماً على الأرض، يصغي إلى شخيرها.

ضحكت غلاديس:

ـ لكنني لا أشخر. أخبرني الآن. لماذا لم تنم في الليلة الأولى أرضاً ما دمت لا تمانع.

ـ كانت الظروف مختلفة. . ألا تذكرين؟

مرت بجسدها قشعريرة فقد تذكرت ما مرّ بها معه كما تذكرت طعم ملمسه وقوة مشاعرها للمساته وفوق ذلك تذكرت عناقه ـ يا الله ـ عناقه الذي بعث الحياة إلى مشاعرها. لقد شاهدت الغرام وحدّته كثيراً على الشاشة، إلا أن شيئاً منه لم يهيئها نفسياً للنار التي اجتاحتها حين أصبحت بين ذراعيه. . .

لقد بات يصعب عليها الآن أن تواظب على التخفي والإدعاء، فكيف ترضى بأن تكون معه مدعية أنها شخص آخر بعد أن وثق بها ثقة عمياء؟

سرقت نظرة إليه بينما كانت السيارة منطلقة في الطريق الضيق إلى ساغوس فساراغوسه. كان شعرها مبتلاً مشعثاً بسبب المطر، وكان النور ضئيلاً إلى درجة لم تجرؤ معه على وضع أقل زينة على وجهها. إنها الآن على الأرجح تبدو كما بدت عليه منذ أربع سنوات حين نزلت مع عمتها نونا من الباص وذلك بعد ستة أشهر من وفاة زوج عمتها ماثيو. .

كانت عمتها قد باعت المزرعة القديمة بعد أسبوع من تخرج

غلاديس. .

يومذاك قالت العمة رداً على سؤال غلاديس الذاهل:

ـ أصبحت عجوزاً على قضاء شتاء آخر في مزرعة واسعة. سننتقل إلى مكان تشرق فيه الشمس قليلاً. ابنة عمي اوليفيا تعيش في مجتمع يكثر فيه المتقاعدون، وتقول إن المكان رائع هناك.

وهذا صحيح بالنسبة للعمة نونا. . ولكن غلاديس انتظرت حتى استقرت العمة، ثم أعلنت عن نيتها في السفر إلى لندن بحثاً عن عمل. عندما جاءت إلى لندن وجدت عملاً بسهولة، ولكنها لم تجد شقة صغيرة للإيجار. وقد أقامت في المدينة صداقات عدة لم يكن بينها صداقة مميزة. فالناس في المدينة تهمهم مصالحها. أما المؤسسة التي اشتغلت فيها فقد أفلست بعد مدة وجيزة فغدت دون عمل حتى أعانها القدر وأنجدها، إذ حدث أن قرأت إعلاناً غريباً في قسم الإعلانات المبوبة في صحيفة الأحد مفاده: «مطلوب سكرتيرة ومرافقة. . فرصة مثيرة» فكان أن سعت وراء هذا الإعلان وكان أن التقت بجوستين.

خاطرت غلاديس بإلقاء نظرة أخرى على كاميرون. . قال لها بعض الشبان في بلدتها يوماً إنها جميلة ولكن سماع هذا التعبير من كاميرون أمر مختلف. لم يبدر في ذهنها من قبل أن النظر إلى شخص، إلى رجل قد يبعث الرضى هكذا إلى نفسها وما ذلك بسبب مظهر الرجل بل بسبب كل شيء فيه. . . طريقة حركته، طريقة كلامه، طريقة سيطرته على مكان هو فيه.

هل تشعر نساء أخريات بما تشعر هي به نحوه؟ أجل. . بالطبع. . على الأرجح هناك نساء كثيرات في حياته. . . نساء من ذوات الخبرة التي لا تملكها. فجأة أحست بكرهها لهن جميعاً. كرهت أولئك النسوة المجهولات اللواتي عرفن طعم الإحساس بذراعيه القويتين حولهن وطعم ملامسة هاتين اليدين أجسادهن. . .

أطبقت يد كاميرون على يدها:

ـ أمستيقظة أنت؟

هزت رأسها فتابع:

ـ انظري إلى الخارج إذن.

أدارت رأسها وشهقت:

ـ سراقوسه؟ اوه... ستيف إنها جميلة!

كانت المدينة خليطاً غير متناغم من السقوف القرميدية الحمراء المتربعة فوق وادٍ يمتد بنعومة إلى التلال العالية، ويبدو في البعيد نهر ايبرو الشبيه ببحيرة، الذي يلتقي عنده نهران صغيران هما «هورما» و«غاليكو»، ابتسم كاميرون:

ـ إن كل شيء حتى المطر يؤازرنا. فلن نجد في طقس كهذا السواح إلا داخل القصور الملكية لعائلة إراغومه.

ـ غير أنني لا آبه للمطر.. أريد رؤية كل شيء.. هل لنا أن نفعل ذلك؟

ـ بكل تأكيد.. سنشتري لأنفسنا أكبر مظلتين نجدهما، وسأريك المدينة كلها، ساحتها وجسورها وآثارها القديمة. ألم تزوريها من قبل حقاً؟

ـ قلت لك لا.. أيقول ملفي شيئاً مختلفاً؟

ـ لا أصدق.. إن بعض الناس يقول إن جمالها يوازي جمال فلورنسا وبرشلونة..

ـ حقاً..؟ لم أسمع بهذا من قبل.

هز كتفيه:

ـ في الواقع لم أزر فلورنسا من قبل، لذلك لن أعرف. أما برشلونة فهي مدينة شهيرة، تعتبر ملتقى السواح.

ـ صحيح.. أليست هذه مدينة صغيرة نائية؟

أحست بالراحة حين ابتلع الطعم وأخذ يتحدث عن المدينة، مشيراً إلى آثارها البارزة وخصائصها الفريدة. بعد وقت غير طويل، أوقف

السيارة أمام باب كاراج مقفل:

ـ لن أغيب دقيقة.

واختفى داخل المبنى حتى عاد ضاحكاً يتحدث إلى رجل أشقر الشعر يرتدي بزة عمل غير وسخة. هز الرجل رأسه لغلاديس مرحباً فابتسمت له.

ـ سيلقي فرد نظرة على السيارة.

ركع فرد أمام السيارة ونظر إليها من الأسفل، ثم استقام مستنداً إلى المقدمة وهناك راح يحرك السيارة من جانب إلى آخر.. يشرأب برأسه طوال الوقت وكأنه يصغي إلى دقات قلب مريضة. أخيراً التفت إلى كاميرون وهز رأسه، ونظرة تعاطف على وجهه:

ـ أجل.. أنت على حق ثمة مشكلة كاميرون.. هيا اركب السيارة.

ارتفع باب الكاراج ببطء فبان الكاراج في فوضى تامة. قاد كاميرون السيارة إلى مرتفع حديدي وأطفأ المحرك ثم التفت إلى غلاديس:

ـ لست دهشاً، ففرد يعتقد أن السبب هو كرات المفصل المتحرك. ولكنه لن يجزم قبل أن يتحقق منها بعد أن ترفعها الرافعة.

ـ تبدو منزعجاً.. أتخشى أن يكون العطل أخطر من هذا؟

ضحك وهز كتفيه:

ـ لست قلقاً على السيارة، لقد طلبت من فرد أن يرشدني إلى وكالة أستطيع فيها استئجار جيب أو شيء مماثل ولكنه لسوء الحظ لا يعرف أحداً.

ـ ولماذا؟

ـ لا يمكن الحصول على سيارة كهذه دون حجز مسبق، ولن نستطيع الانتظار. فأنا أفضل أن نعود بسرعة إلى المنزل. فلو حدث شيء هناك لأمكننا تجنب الخطر بسبب موقع البيت في أعلى القمة.

هزت غلاديس رأسها:

ـ عمَّ تتحدث ستيف؟

تنهد خارجاً من السيارة وصفق الباب وراءه، وهمس حين فتح الباب:

ـ غلاديس. لا أريد إزعاجك إلا أننا لا نستطيع المخاطرة فلا ندري حقاً إن كان هناك من يتبعنا. سأتصل بمدريد فيما بعد لأتأكد.. ولكن غلاديس.. حبيبتي.. ما بك؟

ليتها تستطيع البوح بالسر وليتها تملك الشجاعة لتقول: إن هذا كله خطأ فظيع.. أرسلك يورك في مهمة لا جدوى منها... ولكن الخداع ليس خداع آدم يورك، بل خداعها هي كذلك. فالشعور بالذنب الذي شعرت به أمس أصبح اليوم أشدّ وأقوى.

مد ستيف يده إلى ذقنها يرفع وجهها إليه:

ـ لا تخافي غلاديس. سأعتني بك... فتوقفي عن هذا وإلا سيظن فرد أنك لست سعيدة معي، وعندها لن يبر بوعده.

أجبرت نفسها على الرد على ابتسامته:

ـ أي وعد؟

ـ سيجري بعض الاتصالات بحثاً عن سيارة لنا. قال إن هذا ليلا السنيوريتا. يجب أن تعرفي أنه وحده القادر على إيجاد سيارة لنا.

وكان ستيف محقاً.. فقد أجرى فرد ثلاث مخابرات، الأخيرة منها طالت ولكنه عندما عاد كان مبتسماً:

ـ فانتا شيكا كاميرون.. لدى ابن خال ابن عمة زوجتي ما تطلب.

بعد ساعة كانا ينطلقان في الشوارع المرصوفة بالحجارة المربعة في سيارة تشبه الرانج، محركها أشبه بمحرك سيارة سباق. وكان فرد قد انحنى قليلاً فوق محركها، ثم ابتسم بتواضع وقال:

ـ أجريت عليه بعض التعديلات كاميرون لذا أظن أنه سيرضيك.

بعد أن جرت بهما السيارة في الأزقة، بدا كاميرون راضياً بالفعل:

ـ عظيمة.. هذه الطفلة ستأكل طرقات الجبل أكلاً، وتطالب بالمزيد. نستطيع الآن تمثيل دور السواح.. ما رأيك؟

ابتسمت غلاديس.

ـ تبدو فكرة رائعة.

كان أول ما توقفا فيه محل أنيق للجلود وهو من المحلات التي ترضي دون شك ذوق جوستين يورك ولكن منظره أوقف غلاديس مكانها، فتوقفت تشد ذراع ستيف:

ـ لا نستطيع الدخول هنا... نبدو من المفلسين.

ـ أهي جوستين غلاديس المتكلمة!

وجرها إلى المتجر مردفاً:

ـ يجب أن تعرفي أكثر من هذا. تصرفي وكأنك تتوقعين معاملة الأمراء. راقبيني.

عرفت ببهجة كاملة أنه على حق، فقد بدت الموظفة الأنيقة الملابس دهشة من منظر هذين الشخصين الرثين ولكن كاميرون أبرز سحراً وكياسة، وتصرف وكأن المحل ومن فيه تحت خدمته لذلك عندما أخرج بطاقة اعتماده ليدفع ثمن مشترياته، كانت وجوه الموظفين مبتسمة راضية.

همست غلاديس وهو يساعدها على قياس سترة جلدية ناعمة:

ـ ستكلفك ثروة.

ـ الطقس بارد وممطر في الخارج، وأنت بحاجة إلى هذه السترة حتى تكمل استكشافنا للمدينة سيراً على الأقدام. تطلعي إلى نفسك في المرآة وانظري كيف تبدين.

جعلتها لمسته ترتعش فكان أن رأت عندما نظرت إلى المرآة صورة ستيف إلى جانبها فقط فقالت:

ـ أنا.. إنها.. تبدو جميلة.

التقت عيناه بعينيها.. وتمتم:

ـ أجل.. جميلة!

لم يتوقف هطول المطر ذاك اليوم بطوله وقد أراها فيه كاميرون

المدينة كما يعرفها هو... وكانت هي طوال الوقت، تحس أنه حذر مترقب.. فذراعه لم تبرح ذراعها وعيناه لم تستقرا على مكان واحد بل كانتا تنظران إلى الزوايا المعتمة وإلى الأزقة. وكان حذراً في المطعم الجميل ذي الموقع المشرف على شاطىء النهر، وكان قد طلب عندما دخلا إليه طاولة معزولة في الزاوية، ثم جلس في مكان يستطيع فيه الإشراف على المدخل إشرافاً أكيداً.

توقف المطر فجأة بعد الظهر وذلك حين كانا يتمشيان في المدينة العامة على مرتفع يشرف على المدينة.. نظر إلى السماء وطوى المظلة:

ـ الحمدلله.. كنت أخشى أن نتحول إلى قطرات مطر.

ـ في يوم جميل كهذا؟ أنت تمزح دون شك.

ـ جميل؟ أتسمين هذا الطقس الممطر يوماً جميلاً؟

أرادت أن تقول له إن هذا اليوم أجمل يوم قضته في حياتها لأنها أمضته معه. ولكنها ابتسمت وقالت تغيّر الموضوع:

ـ ألديك مكتب في فرنسا ستيف؟

هز كتفيه:

ـ حسناً.. بما أنك سألت

ـ إذن أنت لست بغريب عن الطبخ الفرنسي.. أليس كذلك؟

وهذا يعني أنه يعرف كل شيء عن حساء الخضار...

ـ ربما...

ـ لو تفوهت بكلمة مواربة أخرى كاميرون.. أقسم أنني سأضربك.

شدها إليه وابتسم:

ـ أنا سعيد لأنك تقضين يوماً ممتعاً غلاديس. أتعلمين أنك بالنسبة لفتاة لديها كل شيء سهلة الإرضاء بشكل مدهش.

تلاشت بسمتها:

ـ أعود وأقول إنك لا تعرف حقيقتي.

ـ أعتقد أنني لا أعرف حقيقتك. فمن ينظر إليك حين اشتريت لك الآيس كريم، يحسبني اشتريت لك حلية الماسية.

ـ أنا أحب الآيس كريم وأفضله منذ الطفولة.

ـ أراهن على أنك كنت طفلة لذيذة.. كيف كان منظرك؟ أكنت تربطين شعرك ربطة ذنب الحصان؟ أكنت تضعين جسراً فولاذياً لتقويم أسنانك؟

ضحكت:

ـ أجل.. وأجل.. والدتي كانت تقول دائماً...

وتلاشى صوتها إلى صمت.. احذري غلاديس. احذري..

ـ تابعي! ماذا كانت تقول والدتك؟

ـ كانت تقول إن الجسر الفولاذي غير نافع لأن أسناني ما زالت بارزة.

مد يده إلى ظهرها وجذبها إليه، ثم قال:

ـ بما أنك ذكرت هذا الآن.. فأعتقد أنها كانت محقة. ولكنني أظن أن بروز أسنانك ساحر. تبدين وكأنك بانتظار من يقبلك.. أتنتظرين غلاديس؟ أتريدين أن ألمسك؟

بل أريدك.. أن تحبني.. كما أحبك!

كان ينظر إليها بعينين ضيقتين.. ينتظر ردها.. فغشيت الدموع عينيها، وأحست بخيوط حريرية خدّاعة تشتد على خناقها.

ـ ستيف.. أنت.. أنت لا تفهم.. أنا لست.. لم يكن من المتوقع...

فقاطعها بصوت أجش:

ـ ولا أنا.. فلماذا نضيع ما لدينا من وقت بقي؟ سنعود قبل أن ندري إلى مدريد.. وعندئذ.

فجأة تصلب جسده، واشتدت ذراعاه حولها وكأنهما من فولاذ.. ثم سمعته يتمتم بكلمة فظة.

نظرت إلى عينيه وتمتمت «ستيف» ولكنه كان ينظر إلى البعيد، وراءها..

ـ اصمتي..

ـ ستيف.. ما الأمر؟ ستيف أرجوك أنت تخيفني.

ـ هناك مقعد خشبي في ذلك التجويف وراءك.. حين أتركك أريد منك أن تتوجهي إليه وتجلسي عليه.

ـ ما الأمر؟ أهناك شيء...

ـ اجلسي وابقي هناك ولا تتحركي مهما سيحدث. أتفهمين؟

ارتجفت بين ذراعيه وهمست:

ـ أجل.. ولكن..

بيد أن الاحتجاج مات على شفتيها فهي لم تشاهده هكذا من قبل.. عيناه كانتاكحجرين رماديين... خطا إلى الوراء خطوة.. ثم أخرى واستطاعت خلالها مشاهدة التوتر في جسدهٔ والقوة المربوطة المنتظر أن تطلق من عقالها.

ـ تحركي الآن!

كان صوته كسوط لاذع آمر ينتظر الطاعة..

استدارت مرتجفة إلى المقعد الخشبي، وغرقت فوقه ولكنها رأت في تلك اللحظة لمعان المسدس الأسود في يده.

* * *

١٠ ـ لا شاهد إلا القمر

لم تشعر غلاديس قط بخوف كهذا. فبعد وقت طويل من اختفاء ستيف بين الظلال، بقيت مطبوعة في عينيها صورة مسدسه المعدني الجاف القاتل الذي كان يحمله بسهولة.

ماذا رأى؟ لفّت ذراعيها حول جسدها ذلك أن الريح هبت بين أشجار السرو مشبعة ببرودة المطر. لقد شاهد شخصاً دون ريب، شخصاً أخبرته غريزته بأنه خطر.

أين هو الآن؟ امتدت الثواني إلى دقائق، وما زالت وحدها تحاول رؤية ما وراء الظلال. توشك الشمس على المغيب وتتطاول الظلال حتى تكاد تطبق على الحديقة بدثارها الأسود.

ماذا تفعل إن لم يعد قبل حلول الظلام؟

هبّت على قدميها ثم سارت بضع خطوات مترددة. لقد اختفى كاميرون بين خميلة من الخمائل ولكنه قد يكون في أي مكان الآن، مصاباً ربما. والله وحده يعلم من ذاك الكامن له وراء الظلال. غير أن وجودهما في هذه التلال خافٍ عن الناس.. لا.. هذا غير صحيح تماماً، فما لا يعرفه الناس هو مكان جوستين يورك.. اووه.. الأمر معقد.. لماذا لم تخبره بالحقيقة؟

بدأ المطر ينهمر مجدداً إنما بقوة هذه المرة تدفعه الريح وتذريه إلى داخل السترة الجلدية التي اشتراها لها. إنها سترة استخدمها وسيلة أخرى للحماية. إنها عقدة أخرى في شبكة النزاع التي تلفها حول

نفسها. لقد تركته على اعتقاده الخاطىء، وكأن ما يجري لعبة لا ضرر منها. إلا أن ما حدث في المطار لم يكن لعبة.. فلنفترض أن هناك من لحق بهما من مدريد؟ كل شيء جائز. ترى أيصارع كاميرون في الوقت الحالي قاتلاً مأجوراً؟ أتراه مصاباً أو متألماً.. أتراه....

لا.. أرجوك يا الله... وأغمضت عينيها، غير أن صورة ستيف ممدداً على الأرض مبللاً بارداً، بقيت حية أمام ناظريها. فهمست:

ـ ستيف.. ستيف...

ـ غلاديس.

عندما سمعت صوته أجهشت بالبكاء ثم رمت نفسها بين ذراعيه. فاحتضنها بقوة واضعاً ذقنه على قمة رأسها، فدفنت وجهها في صدره، تتنشق رائحته، وتصغي إلى خفقات قلبه السريعة..

ـ غلاديس. لا بأس عليك حلوتي... كل شيء على ما يرام...

ـ كنت خائفة. اوه ستيف. تصورت.. فكرت...

هزها بلطف كمن يهدهد طفلاً:

ـ شش.. كل شيء على ما يرام.

ـ ما.. ماذا حدث؟ هل.. أكان هناك أحد؟

ـ أجل.. أجل.

خفق قلب غلاديس.

ـ هل.. هل قبضت عليه؟

ـ لا.

ـ ولكنك غبت طويلاً.. ظننت.. ظننت.. كنت خائفة..

اشتدت ذراعاه حولها:

ـ أطلت الغيبة قليلاً.. هذا غباء مني... ما كان يجب أن أتركك أبداً.

ـ لم أكن خائفة على نفسي.. بل عليك. ظننت أن شيئاً ما أصابك.

ـ هيا بنا.. فلنغادر هذا المكان اللعين. أيمكنك اجتياز هذا المنحنى وصولاً إلى السيارة بسرعة؟

ـ ماذا حدث ستيف؟ ألن تخبرني؟

ـ فيما بعد.. حين نصبح في أمان.

ـ أمان؟ أهناك من يتبعنا؟

كان صوتها رفيعاً هامساً وجلاً، فرد ستيف:

ـ تمسكي بيدي وانتبهي لخطواتك على هذا العشب الزلق.

بدت لها فجأة الحديقة شروراً وظلالاً، كانت تعلم علم اليقين أنها ظلال أشجار. صاحت بومة بصوت عالٍ حاد فارتجفت غير أن يد ستيف كانت تمسك بها باعثة في نفسها شجاعة مكّنتها من نزول التل المعشوشب باتجاه السيارة. عندما وصلا أخيراً إلى السيارة ولاذا بأمنها ضحكت ضحكة مرتجفة:

ـ لقد خفت حتى الموت هناك ستيف.

نظر من نافذة السيارة الأمامية إلى البعيد ثم شغّل المحرك.

ـ لم أقصد إرعابك، ولكنني لن أخاطر أيضاً أبداً.

وانطلقت السيارة مخلفة المنحنى وراءهما ثم راحت مسّاحتا السيارة تساعدهما على الرؤية بوضوح.

ـ وأين الخطر؟ (سألته مستفسرة).

ـ من أين أبدأ... حسناً. أولاً ما كان علي تركك وحيدة في ذاك المكان فلو تبعنا أحدهم لـ....

ـ لو...؟ أتعني أنك لست واثقاً؟

ـ لا.. لست واثقاً.. رأيت شخصاً في الظل. لم ألحق به.. بل ادعيت أنني تركتك وحيدة، ولو كان هناك أحد....

ارتجفت غلاديس:

ـ أهناك.. هل لهذه السيارة جهاز تدفئة؟ أحس ببرد شديد.

ـ أنت مبتلة.. هناك غطاء على المقعد الخلفي، تحت بعض

المجلات.. رأيته هذا الصباح.. هل تقدرين على الوصول إليه؟
استدارت إلى الوراء بعد أن فكّت حزام الأمان:
ـ أجل.. أستطيع.
ثم وضعت الحرام عليها وأسنانها تصطك برداً.
ـ هذا أفضل؟
ـ أجـ... أجل.
ـ تنشقي نفساً عميقاً فآخر. فتاة طيبة.
انخفض صوته ناعماً، وأمسك بيدها:
ـ لا تخافي... لن أسمح أن يصيبك مكروه.
آلمها الشعور بالذنب فهمست:
ـ أعلم هذا.. ستيف.. ذلك الرجل.. هناك أسباب كثيرة لوجوده هناك.
ـ بالتأكيد.
ـ إذن.. لماذا تصرفت على ذاك النحو؟
رفع نظره بحدة إلى المرآة، فوجّهت غلاديس نظراتها أيضاً إلى الزجاج الخلفي فرأت سيارة تحاول تجاوزهما. كانت أنوارها الأمامية تقترب وتقترب حتى تجاوزت سيارتهما راحلة في حال سبيلها.
فزفرت أنفاسها بارتياح.
ـ وكيف تصرفت؟ بأية طريقة؟
أعادت نظراتها إليه ثانية:
ـ استنتجت أسوأ الإستنتاج حين شاهدته.
هز كتفيه:
ـ هذا أحد الأشياء التي يتعلمها المرء في مهنتنا. قد يجد المرء عشرات الأسباب التي تجعل رجلاً يقف في الظل في أمسية ممطرة، فقد يكون مع كلبه أو قد يكون متخاصماً مع زوجته ويريد كبح عنان غضبه. يا الله. لم أرَ إلا أنه يحدّق فينا ولعل تحديقه ذاك يعود إلى رغبته في مراقبة

العاشقين.
ـ ما دامت هذه الأفكار جميعها خطرت على بالك فلماذا...؟
ـ لأنه قد يكون هناك لأسباب أخرى، سبب قد يعرضك للخطر... وأنا لن أخاطر أبداً.
ـ و.. و.. المسدس؟
ـ الدرس الأول الذي يجب أن تتعلميه عن الأسلحة: لا تحملي سلاحاً إلا إذا كنت مستعدة لاستخدامه.
أحست بحنجرتها تجف:
ـ وأنت مستعد لاستخدامه لحماية جوستين يورك؟
ـ هل ستتجادل بشأن الأسلحة؟
ضحكت باهتزاز:
ـ إنه سؤال بسيط ستيف.
ـ يا رباه. أعلم أن الأسلحة فاتكة ولا أحسب أن في الكون من يرغب في استخدامها.
أشاحت بنظرها إلى الطريق:
ـ ولكنك مستعد لاستخدامها إذا اضطررت.
نظر إليها مقطباً قاتم الوجه:
ـ ما خطبك غلاديس؟
ـ أريد أن أسألك. افترض أنك وبينما كنت تؤمن الحماية لشخص ارتكبت غلطة...
رد بهدوء:
ـ لا أحد معصوم عن الخطأ، وكلنا معرضين لارتكاب الأخطاء.
ـ إلا أن الخطأ، الخطأ الذي تتحدث عنه مسؤولية رهيبة، أليس كذلك؟
انخفض صوتها حتى غدا همساً، فأطرق ستيف برأسه:
ـ أجل.. إنها بمسؤولية كبيرة. عندما اشتغلت مع المخابرات

وجدت أنهم يستغلون الرجال في العمل كقطع الشطرنج.. يجلسون في مكاتبهم، يلعبون ألعابهم، بعيداً عن العالم الحقيقي ملايين الأميال، متلاعبين بنا وبمصيرنا! يا للفظاعة! كنا وقتذاك عرضة للاستهلاك فلم يكن يهمهم غير اللعبة. أتفهمين قولي غلاديس؟ هناك أنذال يعتقدون أن الأمر لعبة. أما أنا فلم أنظر إلى ذاك العمل من هذه الوجهة.

بعد أسابيع من الآن سيبقى عالقاً في ذهن غلاديس هذه اللحظات التي فيها يُسمع وقع المطر وصوت المساحتين وخشونة صوت ستيف ولكن ما سيبقى أكثر رسوخاً هو الأسى الغامر الذي تصاعدفي نفسها، كيد عملاقة تطبق على خناقها وتحبس الهواء عن رئتيها... شعرت أنها تكاد لا تقوى على التنفس فكيف لها أن تتكلم. أطرقت رأسها، وردت على ضغط أصابع ستيف على أصابعها، وهي تحدق على غير هوادة إلى الليل المظلم البارد.

باتت هذه الكذبة التي تعيشها منذ ثلاثة أيام لا تطاق، ولكنها الآن تحولت إلى بلاء... كيف أصبحت غبية إلى هذا الحد؟ كان ما فعله ستيف منذ اللحظة الأولى في المطار في سبيل سلامتها غير أنها الليلة وللمرة الأولى... أدركت أن قواعد مهنته قد تكون مميتة... فكيف تستمر فيها وهي تمثيلية تختلف كل الاختلاف عما اتفقت عليه مع جوستين؟ ترى ما سيكون عليه غضبه حين يعرف الحقيقة؟ لقد قال لها آدم يورك إنه سيغضب غضباً شديداً ولكنه أكّد لها بأنه سيسوي الوضع معه فاعتقدته قادراً، أما الآن فهي تعلم علم اليقين أنه لن يقدر على تهدئته.. فاللاعبون دائماً، لا يرون كيف تنزف قطع اللعبة...

فكرت في الرجل الذي كان واقفاً في الظل. فكرت في المسدس الذي حمله ستيف، وارتجفت. ماذا لو قبض ستيف عليه؟ ماذا لو قتل أحدهما الآخر؟ يا الله يا رحمٰن! وأدارت وجهها إلى الخارج، تريد أن تلعن وأن تشتم.. اللعنة على الأب والابنة في عائلة يورك! قالت جوستين «إنها لعبة لا ضرر منها».. ولكنها أخطأت فاللعبة رهيبة

خطرة...

وهذا ما كان يحاول ستيف أن يخبرها إياه منذ البداية.. حين كان يعتقد أنها تستخف بجهوده لحمايتها... كم كرهها وقتذاك وكم سيكرهها ويحتقرها الآن حين يعلم أنها استغلته وتلاعبت به في لعبة لا معنى لها.

أدارت رأسها نحوه وقالت بسرعة قبل أن تفقد شجاعتها:

ـ ستيف.. ستيف.. اصغِ إلي...

التفت إليها مبتسماً:

ـ ظننتك نائمة.

ـ لا.. لست نائمة.. كنت أفكر.. ستيف...

هيا.. أخبريه!

وغطت يده يدها:

ـ ما زلت باردة.. سنصل إلى المنزل قريباً وفيه سأسرع إلى إشعال الموقد. ما رأيك؟

ـ ستيف أرجوك.. أنا.. أنا...

ابتلعت ريقها ثم تنفست بعمق:

ـ نحن لم نتصل بمدريد اليوم.. أليس كذلك؟

ـ تقصدين لم نتصل بوالدك؟ سنذهب إلى ساغوس صباحاً. أنت دون شك تتوقين إلى العودة، فما هذه هي العطلة التي وعدت نفسك بها.

كان قلبها يدق بجنون:

ـ ستيف.. يجب أن أخبرك... هذه العطلة.. ليست...

خانتها شجاعتها فترددت، ثم كررت:

ـ يجب أن أخبرك شيئاً عن نفسي.. عن جوستين...

ـ فيما بعد.

هزت رأسها وصاحت يائسة:

ـ لا.. لا.. لا أستطيع تأجيل الموضوع أكثر من هذا. كان يجب أن أخبرك منذ أيام.. أنا...

ـ اللعنة غلاديس. فيما بعد!

كان صوته قاسياً مهدداً، كما كان في المدينة قبل قليل.. فاستدارت إليه مذهولة. في هذه اللحظة أطفأ الأنوار الأمامية فأطبق ظلام الليل الدامس حولهما.. فهمست:

ـ ما الأمر؟

ارتفعت عيناه إلى المرآة لينظر إلى الخلف.. هل كان على حق؟ أيتبعهما أحد؟

ـ أرأيت شيئاً؟

أبطأ سرعة السيارة ثم أوقفها وهمس:

ـ اصمتي... أين هو... اوه.. ها هو.

شهقت وقد قفزت نبضات قلبها، وسألت بصوت يكاد لا يُسمع:

ـ ماذا؟ لا تستخدم.. المسدس ثانية؟

ـ لا.. بل المنظار الليلي.. أريد إلقاء نظرة على المنزل و...

رفع المنظار إلى عينيه وصمت لحظات مراقباً، ثم قال:

ـ حسناً.. يبدو أن كل شيء على ما يرام.

ـ أرأيت شيئاً.. أرجوك أخبرني الحقيقة.

انطلقت السيارة من جديد ثم قال بصوت خفيض:

ـ قلت لك الحقيقة. إن هذا تدبير احتياطي ليس إلا. لم نعد نرى سيارة خلفنا منذ ما يزيد عن النصف ساعة، بيد أن الاحتياط لازم، فلو سرنا دون أضواء لأصبح من الصعب أن يرانا أحد في ليلة كهذه.. لا أريد أن أخاطر.

ـ لا أذكر أنك خاطرت من قبل.

ـ كنت أخاطر طوال اليوم.. ما فعلناه كان جنوناً.. كان يجب أن نوصل البورش، ونأخذ الرانج، ونغادر سارقوسة.

أطبق عليها حزن مؤلم وحلو قطعته بقولها:

ـ أنا سعيدة بهذا اليوم.

ضحك بنعومة وداعب شعرها بأصابعه:

ـ وأنا كذلك.. كان يوماً رائعاً.. وأريد أن أطمئن إلى أنه سيبقى. اهدئي لنكمل المئة يارد الباقية وعيوننا وآذاننا مفتوحة..

حبست أنفاسها وهما يتقدمان نحو المنزل.. توقف المطر الآن ولكن القمر بقي مستتراً خلف غيوم مرتفعة.. كانت العتمة خارج السيارة ملموسة، وكان الصمت ثقيلاً على أذنيها حتى كاد يحطم طبلتي أذنيها. حين أطفأ ستيف المحرك، كاد هذا الصمت يقبض على أنفاسها. قال بصوت منخفض:

ـ حسناً.. سأسبقك لأتحقق من وضع المنزل. انتظري ريثما أعود.

ـ لا.. أريد أن أكون معك.

ـ غلاديس.

تنفست بصعوبة:

ـ أرجوك..

سمعته يتنهد:

ـ حسناً.. ابقي خلفي..

وكأنما تجرؤ على الابتعاد عنه قيد أنملة. عندما وصل أمام الباب فتحه ثم دخل قبلها تتبعه هي كظله. راح مصباحه اليدوي يجول في المطبخ ثم قال بعد لحظات:

ـ ابقي هنا.

ـ ستيف...

ـ ابقي هنا.

كان في صوته رنة لا تسمح بأي جدال.

هزت رأسها إيجاباً، وتراجعت مترددة خطوة إلى الوراء... ثم أخرى، حتى أحست بضغط الجدار الحجري البارد على كتفيها. اتسعت

عيناها، لتستطيع الرؤية بوضوح، ولكن الرؤية مستحيلة. أين هو ستيف الآن؟ إنها لا تسمع شيئاً. حتى وقع أقدام خفيفة. يا الله.. أين هو؟

ما هذا؟ صراع. أجل.. ها هو من جديد.. إنه صادر من غرفة النوم... بيت الخلاء.! هل تفحص ستيف بيت الخلاء؟ ربما يجب أن تلحق به.. ربما...

سمعت من جديد ضرباً ولطمات ثم اصطدام بالأرض.. يا إلهي.. لا.. لا...

صاحت مذعورة عندما رأت شبحاً يطل عليها من الظلام:

ـ لا.. لا تفعل...

أطبقت ذراعا ستيف حولها.

ـ غلاديس.. حلوتي.. هذا أنا.. أنا..

لم تستطع أن تنطق إلا باسمه فقد صرعها الخوف وشل حركتها:

ـ ستيف.. ستيف.. سمعت.. ظننت أن هناك شخصاً...

ـ بل فأر. كان في بيت الخلاء فأر.

ضحكت غلاديس فامتزجت ملوحة دموعها بلعابها، وهمست:

ـ شكراً لله.. لن تصدق ما تخيلت.. أنا آسفة.

دنا منها أكثر فأكثر:

ـ ولمَ الأسف؟.. لا تعتذري أبداً عن الخوف غلاديس، فنحن جميعنا نخاف.

أحست فجأة بالطريقة التي تلتصق به من رأسها إلى أخمص قدميها، فخدها مستقر على صدره الذي يتناهى منه وقع أنفاسه القوي السريع. فجأة شعرت بأن كل ما تريده هو أن ترفع يدها لتلامس بشرته الدافئة والطرية...

ـ ألا تريد.. ألا تريد إشعال المصباح؟

أمسكت يداه برأسها يرفعه ويقول بهدوء:

ـ لا نحتاج إليه. أترين؟ القمر يظهر وجنتيك وعينيك وفمك...

كان يمرر إصبعه بنعومة على كل ما يتلفظ به. فأغمضت عينيها، وتنشقت الهواء عميقاً وكأنها تتنهد..:

ـ ستيف.. لا يمكننا...

ـ أعرف أنني لن أؤذيك فلا تخافي مني غلاديس.

مرر إصبعه فوق شفتيها وتمتم:

ـ قولي إنك تحبينني.. قولي...

كان صوته خشناً، مثقلاً برغبة ووعد دفع الدم حاراً في عروقها... ولكنها قالت يائسة:

ـ أرجوك. ستيف.. يجب أن تصغي إليّ.. يجب عليّ أن.. يجب أن...

ـ لِمَ تخافين؟ مني أنا؟ قولي إنك لا تخافين مني.

ـ لا.. لا.. لست خائفة منك.

وضعت يديها على صدره تدفعه.

ـ ستيف.. لن أخاف منك أبداً.

همس يمسك بيديها عن صدره ويرفعهما إلى شفتيه:

ـ نحن آمنان هنا... ثقي بي. ثقي بي غلاديس. لن أدع شيئاً يؤلمك.

فجأة شهقت، وتلوّت بين يديه:

ـ ستيف، يجب أن تصغي إليّ.. أنت لا تعرفني.. أنا لست.. المرأة التي تظنها.. أنا.. أنا..

ـ انظري إلي...

رفعت وجهها إليه، كان القمر قد أطل بعباءته البيضاء في كبد السماء، يرمي نوراً خفيفاً غريباً على قسماته وعلى عينيه اللامعتين بلهيب فضي. وقال:

ـ الآن.. قولي لي إنك لا تحبينني... قولي لي.. وسأتركك على الفور.

ارتد رأسها إلى الوراء، وأحست بجسمها يلتصق به، وكأنها تسعى إليه سعي برعم الزهرة إلى الشمس:

ـ ستيف.. أنا.. أنا.. أرجوك..

ـ أرجوك ماذا؟ قولي إنك تحبينني. قولي غلاديس.

كان صوته يلح عليها، يصرّ على أن يعرف مشاعرها. عيناه.. آه من هاتين العينين الفضيتين اللتين تبوحان لها بأشياء.. وأشياء... وتعرضان عليها أشياء وأشياء. تحركت يداها فوق قميصه، فشعرت بخفقات قلبه تتسارع تحت راحة يدها، شاذّة في قوتها وعنفها كخفقات قلبها تماماً.

قولي له.. لا.. قولي له إنك كذبت عليه وإنك استغليته، قولي له.. قولي له...

ولكنها حين تكلمت لم تستطع إلا البوح بمشاعرها فراحت تكرّر وتكرّر:

ـ أحبك... أحبك.. أحبك ستيف..

عندئذ اجتاحت وجهه بسمة ابتهاج شرسة، وهمس:

ـ ما أعذب هذه الكلمة على قلبي! وما أروع ملمسك..

أمسكت بقميصه ترفع نفسها على أطراف أصابع قدميها.. فخرجت من حنجرته آهة مخنوقة وهو يحرك رأسه نحوها.

ـ هل تحبينني بقدر ما أحبك؟

لفّت ذراعيها حول عنقه كالتفاف الأفعى، وشدت رأسها إليه متنهدة الرد:

ـ ضمني إليك.. ضمني يا ستيف..

أرادت أن تقول له إنك من كنت أنتظره طول حياتي. أرادت أن تصرخ، أن تمسك به قرب قلبها لتغرقه فيه، كما أرادت أن تقول سأحبك إلى الأبد. ولكن هناك حقيقة أخرى تظلل كل شيء... حقيقة ستندم عليها العمر كله.

١٠ ـ أبواب لا تقفلها الرياح

عندما استيقظت غلاديس صباحاً تنسمت إليها رائحة القهوة المنبعثة من باب المطبخ. بقيت مستلقية في فراشها تقارن بين الاطمئنان الذي تشعر به هذا الصباح وبين ذاك الرعب الذي عانت منه قبل ذلك.

لقد اعترف لها ليلة أمس بحبه كما اعترفت هي له به ولكن هذا الاعتراف عسّر عليها البوح بالحقيقة التي تأخرت في كشفها له. أنزلت قدميها إلى الأرض وهي تراجع في ذهنها طباع ستيف الذي شهدته يستشيط غضباً حيناً، أو يركد صامتاً أحياناً. ولكن طباعه كلها لم تمحُ صورته وهو يحيطها بذراعيه تأكيداً على حبه لها، وهذا هو الشيء الوحيد المؤكد لديها.

غيرت ملابسها بسرعة، وسرّحت شعرها، ثم نظرت إلى نفسها في المرآة المغشاة.. وهمست لصورتها:

ـ امرأة عاشقة.

وضحكت عالياً ثم سارت بحياء إلى المطبخ حيث يجلس ستيف قرب الطاولة يحتسي القهوة، ويقرأ مجلة.. فشهقت نفساً عميقاً ثم دخلت:

ـ صباح الخير.

نظر إليها من فوق حافة كوبه الذي تصاعد البخار منه حاجباً قليلاً من وجهه.

ـ صباح الخير.

تريثت حتى يبدأ الكلام ولكنه بقي على صمته.. كيف لها أن تحس

بهذا التراجع السلبي والتردد والرجل الجالس أمامها يحبها. قالت:

ـ رائحة القهوة لذيذة.. أظن أنني غططت بالنوم...

وعندما لم تتلقَ منه رداً استدارت نحو الموقد وتقدمت إليه، ثم قالت بإشراق:

ـ لقد أقلع المطر عن الانهمار. لم أكن أتوقع أن يكون اليوم مشمساً.. أكنت تتوقعه؟

ـ أنا لا أتوقع شيئاً أبداً. والحياة من غير توقع أبسط وأسهل.

ارتجف وعاء القهوة في يدها، فوضعته بحذر قبل أن تواجهه. ها هو الكوب على شفتيه ثانية ينزله ببطء. لِمَ تخلو عيناه من المشاعر؟ لِمَ هما باردتان كصوته؟ فابتسمت:

ـ ما خطبك اليوم؟ لِمَ أنت نكد؟

رد الصوت المتحفظ ذاته:

ـ ليس بي شيء.

أحست فجأة براحتي يديها رطبتين، فمسحتهما بثوبها تحافظ على الابتسامة ذاتها. ثم قالت بحبور زائف:

ـ أعلم ما بك... كنت تقرأ المجلة.. كانت عمتي نونا تقول إن من الخطأ قراءة الأخبار على معدة فارغة... كما كانت تقول...

نهض واقفاً:

ـ كنت أرغب أن أسمع عظات العمة نونا إلا أنني أخشى أن الوقت يضغط علينا.. أرغب في إجراء المكالمة مع مدريد باكراً.

أحست بيد ثلجية تقبض على قلبها.. فهمست:

ـ طبعاً..

وضع كوبه في المغسلة ثم انسلَّ من المطبخ. فراحت تتساءل: هل عرف حقيقتها؟ اتسعت عيناها ورفعت يدها إلى فمها.. لا.. بالطبع لا.. فهذا مستحيل. قال وهو واقف في الباب:

ـ سأوضب أغراضنا.. فقد يقرر والدك عودتك إليه.

والدك... لن يقول «والدك» لو علم بالحقيقة... فما الأمر إذن؟

ابتسمت ابتسامة مترددة:

ـ إنك على عجلة من أمرك حقاً؟

ارتفع حاجباه:

ـ آه.. فهمت.. توقعت مني متابعة ما لم نكمله ليلة أمس... أليس كذلك؟

ارتفع لون أسود إلى وجهها، وردت بسرعة:

ـ لا! هذا ليس...

فقاطعها:

ـ جيد إذن... إن مخابرة والدك أهم ما عندي في الوقت الحالي.

التوت شفتاه بما يشبه ابتسامة.. وتابع:

ـ ألست قلقة مما يجري في مدريد؟

سحبت نفساً عميقاً. لقد أرادت أن تبوح له بالحقيقة بطريقة مختلفة.. ولكنها تأخرت كثيراً وليس عليها إلا الإقدام وإن متأخراً.

ـ أجل.. بكل تأكيد ستيف.

وضحكت متوترة:

ـ تمنيت والله أن أعترف لك.. ستيف أنا... لم أكن صادقة معك تماماً...

ـ لم تكوني؟

كان ينظر إليها بغرابة وعلى وجهه نظرة لا يضعها المرء عادة إلا عندما يتحدث مع شخص غريب.

ـ لا.. لم أكن.. أنا.. لقد أردت أن أقول لك.. حاولت.. قلت لك إنني لست المرأة التي تظنها...

اشتد اسوداد عينيه، وبرودتهما.. فتنفست مجدداً مردفة:

ـ ولكنني بعد أن أحسست، بعد أن أدركت أنني أحبك...

ـ بل بعد أن أدركت أنك تريدين مشاطرتي الفراش.

ـ لا.. لا.. كيف تجرؤ على هذا القول؟ أنا.. أنا كنت خائفة أن تغير وجهة نظرك بي إن بحت لك بحقيقة نفسي. لصالحك أنت، لا لصالحي.. طبعاً...

ـ أخشى أنك اهتممت بصالحي أكثر مما يجب غلاديس. فأنا سأشاطرك الفراش عاجلاً أم آجلاً، مهما يكن ما تخبريني إياه عن نفسك... فأنت امرأة مرغوبة، جذابة.

عمَّ يتحدث؟ لقد تلاشى اندفاعها إلى البوح له بالحقيقة مع كلماته الوقحة. كيف يريد أن يجعل من حبها له علاقة رخيصة؟ ها هو يبتسم الآن تلك الابتسامة السريعة الفارغة التي كان يطالعها بها حين اختطفها.

ـ يجب أن أسافر إلى أفريقيا بعد غد.

ـ أفريقيا..؟

هز رأسه وهو يتابع المسير باتجاه غرفة النوم:

ـ لدي عملية هناك، عليَّ أن أهيىء لها. فمن عادتي أن أشرف على كافة التحضيرات بنفسي.. سأغيب شهرين أو ثلاثة...

راقبته وهو يوضب الأغراض التي اشترياها في حقيبتها الصغيرة.

ـ إن لم يحن أوان عودتك أجرِ بعض التعديلات الأخرى لحراستك... هل من أسئلة؟

حمل الحقيبة.. فغشيت الدموع عيني غلاديس. ولكنها قاومتها.. فهو لم يعدها بشيء، ولم يخبرها أية أكاذيب..

لم يبق أمامها ما تقوله. لذا جلست صامتة طوال الرحلة إلى ساغوس وحين بلغا غرفة الهاتف التفتت نحوه ومدت يدها:

ـ أعطني القطع النقدية.. سأجري المخابرة بنفسي.

ـ حسناً كما تريدين. إنما إذا أراد والدك أن يتحدث إلى...

غير أنها لم تمهل آدم يورك الفرصة، فقد أجاب على المكالمة عند الرنة الأولى فأدارت ظهرها إلى كاميرون ثم قالت تحدِّث آدم يورك:

ـ هذه أنا.. نحن عائدان.

ـ عظيم.. عظيم.. هل أخبرته شيئاً؟

همست بشراسة:

ـ لا، ولن تخبره أنت.

علقت السماعة قبل أن يقول المزيد، ثم خرجت إلى حرارة شمس آب، وقالت لكاميرون:

ـ هيا بنا.. إنهم يتوقعون وصولي.

نامت معظم طريق العودة إلى مدريد. إذ كان أي شيء بالنسبة إليها خيراً من النظر إلى وجه كاميرون، أو محادثته. ولم يحدث أن تحدثت إلا بتعليق عابر عن الطقس وزحام السير وكان قد بقي صامتاً. يبدو أن أفكاره قد سبقته إلى أفريقيا. لقد قال إنه ألزم نفسه بعملية غير عادية، كعادته وليته لم يقبل القيام بهذه العملية التي اعتقد أنه يحمي بها جوستين يورك.

عندما أوقف السيارة أمام أبواب فيلا يورك في وقت متأخر من بعد الظهر، تعالت تكتكات إليكترونية، قبل أن يسأل صوت عميق أسئلة بالإسبانية أجاب عنها كاميرون.

بعد لحظات، انفتحت الأبواب، وظهررجل.

قال كاميرون بأدب:

ـ سيدخلك جون إلى الداخل.. إذا كنت لا تمانعين.

ـ بالطبع لا أمانع.

فجأة ودون إنذار، أخذ تماسكها المتشدد ينهار ففتحت الباب وخرجت من السيارة.. وهمست بخشونة:

ـ قل لي شيئاً واحداً كاميرون... لماذا تعاملني باستهتار هكذا؟

شحب وجهه لحظات.. وكرر قولها:

ـ باستهتار؟ أهذا ما تعتقدينه؟

اغرورقت عيناها دمعاً، فأطرقت مذعورة:

ـ أجل.. هذا ما أعتقده.

ردد مرة أخرى بصوت منخفض:

- باستهتار...

مد فجأة يده من السيارة ليمسك معصمها:

- كنت محظوظة لأنني لم أقتلك.

- كاميرون أنت تؤلمني.

قال ساخراً:

- هذا هو الخبر السار الأول الذي أسمعه اليوم...

أبعدها عنه بخشونة وصفق الباب، وانطلق مبتعداً.

* * *

- عليك أقله الابتسام بين حين وآخر، فعلى وصيفات الشرف أن يكن مرحات.

تنهدت غلاديس تنظر إلى جوستين التي جلست قبالتها:

- أنا لست رفيقة مسلية. آسفة جوستين.. لن تجدي على وجهي غداً غير الابتسامات.

تنهدت جوستين:

- يجب على إحدانا الابتسام. لست أدري... ربما ما كان يجب أن أوافق على زواج هادىء كهذا.. ربما كان عليّ وعلى دان الانتظار حتى نعود إلى بريطانيا.. ربما...

- لا تكوني سخيفة! أنتما مغرمان بجنون. فكيف تنتظران وحدائق غنّاء كهذه تنتظر إقامة حفل زفافكما. أسعديني على الأقل لأشعر بأن ما حدث في الشهر الفائت كان مفيداً.

قالت بنعومة:

- ليتني أعرف ما حدث.. عدت إلى هنا وكأنك تريدين الموت، صامتة كفخ مطبق.

وقفت غلاديس تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ثم توقفت أخيراً قرب

الأبواب الزجاجية المطلة على الحدائق. راقبت دون وعي العمال يكملون الترتيبات الأخيرة لاحتفال الزفاف الذي سيقام في اليوم التالي.. حين تكلمت جعل التوتر صوتها حاداً:

- لقد أخبرتك جوستين القصة عشر مرات. قضيت وكاميرون بضعة أيام دون راحة، نعيش في منزل ريفي قديم قذر قرب ساغوس، على أطراف الجبل المطل على سراقوسة... وكان مؤمناً أنني...

- وما يزال... لماذا لا تسمحين لأبي بإخباره؟

- وما الفرق؟ فنحن لن نتقابل ثانية.. فهو في أفريقيا.. وأنا هنا.. وحين يعود سأكون أنا وأنت في بريطانيا.

- ولا تنسي دان.

ابتسمت غلاديس.

- وكيف أنساه.. كلما رفعت نظري أجده أمامي يمازحك.

وقفت جوستين أيضاً بدورها لتقترب من غلاديس الواقفة أمام النافذة.

- لا تسخري مني حتى تجربي يا فتاة.

- لم أعنِ هذا..

- أعرف.. لولا معرفتي أن الأمر جنون لأقسمت أنك تحملين شعلة في قلبك للسيد الغامض كاميرون.

وضعت جوستين ذراعها على كتف غلاديس:

- هذا جنون.. أليس كذلك؟ أعني.. إنك لم تقعي في حب رجل الجليد هذا..

- رجل الجليد؟

- هذا ما يطلقه عليه أبي الذي يقول إن أحد أسباب نجاح كاميرون هو عدم وجود مشاعر في قلبه. هل أبي مخطىء يا ترى؟

اعتلت وجهها حمرة الخجل:

- لا أعرف عما تتكلمين.. فأنا...

ـ أنت في الواقع كاذبة فاشلة... أتعرفين هذا؟ لقد حدث شيء ما بينك وبينه أتمنى لو تفضينه لي.

ابتعدت غلاديس عن مخدومتها، وقالت فجأة:

ـ حسناً... بلى.. حدث شيء بيننا. ولكن لا فائدة من الحديث عنه. لن تستطيعي أنت مساعدتي، كما لن يستطيع غيرك مساعدتي.

انقطع صوتها وأشاحت بوجهها بعيداً. فارتفع حاجبا جوستين:

ـ يا الله.. أنت تحبينه.. أنت حقاً تحبينه..

ربما كان السبب أزهار الليمون في الغرفة المجاورة، أو الخيمة المزينة التي يرفعها العمال في الحديقة. ولكنها لا إرادياً اعترفت بالحقيقة لجوستين. أسندت جبهتها إلى الباب الزجاجي.. متابعة بهمس مُعذَّب:

ـ أجل.. أنا أحبه.

راقبتها جوستين بصمت ذاهل، ثم تنفست عميقاً، وتمتمت:

ـ كنت أعرف أن في الأمر شيئاً... ظننتك تعلقت به..

ردت غلاديس بحرارة:

ـ لم أتعلق به فحسب بل أحببته. نعم أحببته ولكنه.. لقد كان حباً من جانب واحد. وقعت في حبه، أما هو فلم يفكر في حبي.

ـ وهل بحث له بمشاعرك.

ـ نعم. ومع ذلك أوضح موقفه بجلاء.

ـ لماذا؟ وماذا قال؟ ماذا حصل؟

تنهدت غلاديس:

ـ لا شيء.. وهذا ما يصعب علي الأمر. استيقظت في الصباح التالي على اعترافي بحبي له فوجدته يحتسي قهوته، ويقرأ مجلة كهذه المجلة. عندما رفع نظره إلي قال ببساطة إنه سعيد بمعرفتي ولكن عليه العودة إلى عمله.

ـ هكذا بسهولة؟

ـ ثم حين أنزلني أمام باب الڤيلا.. قال شيئاً.. قال شيئاً فظيعاً.. قاسياً..

ـ ماذا؟

ـ قال.. إنني محظوظة لأنه لم يقتلـ...

وابتلعت ريقها، ثم أردفت:

ـ لا يهم.. لقد عاد إلى طبيعته، هذا كل شيء. إنه رجل غريب جوستين. قاس.! أتعرفين ما يعني هذا؟ لا يلين...

قالت جوستين متجهمة:

ـ أجل.. أعرف ما تعنين.. إنه نذل لذا سأطلب من والدي أن يتخلى عن خدماته.

ـ لا.. أرجوك.. لا تفعلي هذا. إنه بارع في عمله.. لم.. أشعر قط بأمان كما شعرت حين كنت معه.

لمعت عينا جوستين بتفهم فجائي وهمست:

ـ يا للطفلة المسكينة.

ـ سأتغلب على الأمر.

ـ طبعاً ستتغلبين عليه.. انتظري لتري السقاة الذين تستخدمهم شركة تقديم الأطعمة والمشروبات. إن لم يكن دان حذراً فقد أستبدله بأحدهم.

ضحكت غلاديس ومسحت عينيها بظاهر يديها، وقالت:

ـ لن يتم لك هذا إن وقعت عيناي عليهم أولاً.. والآن فنلقِ نظرة أخيرة على فستانك... لا أظنني شاهدت ما هو أجمل منه.

كانت غلاديس كما وصفتها جوستين مقهورة متضعضعة، وذلك منذ عودتها إلى الڤيلا. ولكنها تمكنت من الحفاظ على مظهر حسن. ولم يكن هذا صعباً في الواقع.. كانت جوستين مشغولة بترتيبات الزفاف التي شرعت في العمل عليها في اليوم الذي اختطفت هي فيه.. وكانت جوستين أيضاً طوال الوقت تمازح غلاديس بشأن كاميرون، غير

أن غلاديس تجنبت أسئلتها ولم تعترف لها بمشاعرها إلا اليوم.

نظرت إلى الحديقة المظلمة ترى خيمة حفلة الزفاف البيضاء والزرقاء تتلألأ تحت أشجار السرو الأخضر. أدخل اليوم متعهدو الحفلة قالب حلوى مؤلف من أربعة طوابق، على الطابق العلوي منه تمثال العروسين.

ارتجفت عندما سمعت بلبلاً شادياً يغرد بصوت رخيم في الحديقة. لقد بدا كاميرون دهشاً حين اتهمته بأنه عاملها باستهتار.. ثم قال إنها محظوظة لأنه لم يقتلها... ليس لما قاله معنى. ولكن ذكرى نظرته ما زالت راسخة في خيالها. كانت نظرته تلك باردة قاسية لن تنساها ما بقيت على قيد الحياة.

رفعت رأسها لنداء البلبل ثانية، ثم فكرت في أن الحل الوحيد هو نسيان كاميرون وحبها له.

دست يديها في جيبي تنورتها، ثم تركت جوستين ونزلت إلى الحديقة تتمشى على ممرها المرصوف بالحصى وهو ممر يفضي إلى بركة تقبع بين أشجار السرو. لقد حاولت نسيانه.. والله يعلم كم حاولت.. لقد تركت دان يقنعها بالخروج مع أشبينه وهو شاب جميل لطيف، جاء من أميركا ليشهد عرسه ولكنها لم تجده إلا شاباً صغيراً لا رجلاً ككاميرون. وقد حدث عندما ودّعها ليلاً أن أيقنت أن الرجال، جميع الرجال لن يُشعروها بما شعرت به مع كاميرون. صاحت بنفسها مؤنبة:

ـ توقفي عن هذا.

بدا صوتها مرتفعاً بشكل غير طبيعي في صمت الحديقة.. فارتجفت ثانية في الظلام الدامس حولها. كانت تظن أن هذه البقعة من الحديقة منارة، وأن هناك مصابيح مركزة بين أشجار السرو. ولكن المكان كان مظلماً. ربما قطع العمال سلكاً في مكان ما... حرّكت ريح هفهافة الأشجار، فتوقفت غلاديس تتطلع إلى ما حولها. إن هذه

الحديقة مكان رائع مبهج في النهار، ولكنها تبدو الآن نذير شر. فالأشجار الباسقة سوداء إزاء السماء المغبرة القاتمة التي يقف فيها القمر شاحباً. سمعت شيئاً ما ينادي في الظلام، كما سمعت صفيراً حاداً ومخيفاً، فاقشعر جسدها.

ارتدت بسرعة لتنظر إلى الڤيلا فرأت أنوارها المتلألئة بقوة تشير إليها بحبور بين الظلال. رفعت كتفيها إلى فوق، وشمخت برأسها رافضة أن تترك العنان لمخيلتها.. كان والد جوستين حذرهما معاً قائلاً «لا تخرجا من الڤيلا وحدكما» وكان أن أطاعته كلتاهما. ولكنها لم تكن تخشى الخروج إلى الحديقة المحروسة جيداً بأفضل التقنيات الحديثة. فجأة تسللت يدان إليها من الخلف التفتا حولها وكأنهما ثعبان شرس. كانت إحدى اليدين تحت صدرها والأخرى على عنقها.. فتحت غلاديس فمها لطلب النجدة إلا أن اليد القريبة من فمها أكمّته. كانت يداً ضخمة يكسوها قفّاز جلدي، ضغطت بقوة على شفتيها... فطغى عليها الرعب واصطكت ساقاها.

همس صوت رجل لا رنين له قرب رأسها:

ـ لا تصدري كلمة.. أفهمت؟

شلّها الخوف أي شلل.

ـ إن أطعتني فلن تتعرضي للأذى.

هزت رأسها من جديد وقلبها يخفق بجنون يضرب ضلوعها، حتى تساءلت عما إذا كان الدخيل يحس بخفقاته تحت يده. فقد كان يكمّ فمها بقوة ويحكم إمساكها حتى عجزت عن المقاومة، وكانت تحس بقسوة عضلاته تضغط عليها. أما ضربات قلب هذا الخاطف فكانت بطيئة وقوية، تحت أذنها الملتصقة بصدره وهي بعكس صوت أنفاسه التي بدت مضطربة وكأنه كان يركض قبل الانقضاض عليها.

ـ هناك بوابة صغيرة في مؤخرة أشجار الصنوبر.. أتعرفينها؟

هزت رأسها مرة أخرى، تشير إلى أنها تعرف البوابة. فقد وجدتها

يوماً صدفة وهي بوابة قديمة صدئة تخفيها أعشاب معترشة.

تابع همسه:

ـ سنخرج منها. أحسني التصرف تخرجي سالمة. أريد ألا أؤذيك ولكنني قد أضطر إلى الأذى إذا ارتكبت ما يدفعني إليه. أتفهمين؟

هزت رأسها من جديد، تتراقص القشعريرة على جسدها.

ـ تحركي. (أمرها بعد أن التفّت ذراعه على خصرها).

وجعلها تسير بين ساقيه وهو يقودها إلى داخل أيكة الصنوبر وردد تحذيره: «لا تتفوهي بكلمة».

غار قلبها إلى أسفل معدتها عندما تكلم، وجعلتها حرارة أنفاسه على بشرتها ترتجف. ولكن لم يكن منبع الرعشة رعباً، بل شيئاً آخر. فلقد تمكنت أخيراً من تسمية صاحب الصوت الهامس، كما تمكنت من معرفة صاحب هذا الجسد الدافىء الملتصق بجسدها. إنه كاميرون!

* * *

١٢ ـ وداعاً جوستين

انفتح الباب الصدىء بسهولة فعلمت غلاديس أنه أُصلح وتسلل كاميرون من بين الأعشاب المعترشة إلى شارع الڤيلا الخلفي. كانت يده حارة، ثقيلة على ضلوعها، وأصابعه قاسية على صدرها، وكان الصمت يطبق على الكون حولهما بترقب وتوتر.

توقفت غلاديس حين أقفل الباب الذي لم يصدر عنه صوت. الشارع الضيق المرصوف بالحجارة المربعة فارغ من أي كائن حي، فحتى القطط كانت بعيدة عن الشارع وكأنها كانت تخشى الظهور. إن هذه الفكرة التي طرأت على بالها غير عقلانية، ولكن الخوف تسلل إلى تفكيرها وكأنه جذور زهرة الشر.

همس كاميرون:

ـ تحركي.

بدأت تنفذ ما طلبه منها حتى لمحت بورش ذهبية تقف عند المنعطف فكادت تضحك عالياً. إنه لم ينجح كثيراً في التخفي، فهل هذه لعبة مجنونة من نوع ما؟

ـ كاميرون.. أعرف أنك أنت.

لم تكن ضحكته الخافية مرضية كما لم تكن كلماته الهامسة مشجعة:

ـ فتاة ذكية... والآن افعلي ما أقوله لك.. وتحركي.

خفق قلبها بقوة، وقالت:

ـ هذا جنون.. هذا...

اشتدت ذراعه عليها:

ـ حين أطلب رأيك، أسألك.. هيا ادخلي السيارة.

شدت قدميها على الرصيف.. وهمست بشراسة:

ـ لا.. لن أتحرك.. أنا..

ـ تحركي!

خفق قلبها ثانية، ثم أسرعت تطيعه. حسناً.. لا أظنها لعبة.. لا تصدق أنها لعبة... فهو لا يتلاعب هكذا. ولا فائدة من الفرار فهو أسرع منها وأقوى، وهذا ما تعرفه أكثر من أي إنسان آخر. فذكرى الخطف في المطار ما تزال حية في ذاكرتها وكأنها حدثت بالأمس.

راقبته وهو يضع المفتاح لتنطلق السيارة مسرعة... ماذا سيفعل؟ لقد كان هناك سبب منطقي حين حملها من المطار... فقد أراد إنقاذها.. أو بالأحرى أراد إنقاذ جوستين يورك..

أحدث شيء رهيب في الڤيلا؟ أجل.. أجل طبعاً. إنه دون شك يبعدها عنها لسبب ما.

نظرت من فوق كتفها تتوقع رؤية من يلاحقهما، فضحك:

ـ لا تزعجي نفسك بالتطلع.. لن تجدي أحداً.

ـ أجل.. ولكن إن حدث شيء في الڤيلا..

نظر إليها نظرة هازئة فارتعش صوتها:

ـ أليس هذا هو السبب.. ألا تهرّبني لأن هناك خطراً ما؟

ضحك ثانية.. وأعاد نظره إلى الطريق:

ـ لا أعتقد أن شيئاً قد حدث بوجود ثلاثة لاندروڤرات تجوب الحدائق ونصف دزينة من الكاميرات ترمي بشعاعها في كل الأنحاء.

نظر إليها لامع الأسنان، وأكمل:

ـ لا يتم هناك سوى تحضيرات الزفاف.. وليس فيها أي خطر... أليس كذلك؟

ـ إذن لماذا تفعل بي هذا كاميرون؟ ماذا تريد مني؟

وصلا إلى طريق مكشوفة فزاد من سرعة السيارة:

ـ اجلسي إلى الخلف واسترخي غلاديس. كنت على الأرجح متعبة اليوم، فتحضيرات الزفاف تتطلب وقتاً طويلاً.. أليس كذلك؟

لم يخفف صوته من توترها رغم انخفاضه وعذوبته. كان يحدثها وكأنها طفلة، أو كأنها إنسانة غير متوازنة عقلياً فاستعر الغضب في داخلها:

ـ لن تنجو بفعلتك هذه كاميرون. لا يمكنك أن.. تخطفني هكذا..

انطلقت السيارة بسرعة بعد وصولها إلى الأراضي الريفية خارج المدينة... ورد عليها:

ـ استرخي.. واهدئي. هذا كل شيء.. لن يفتقدك أحد فترة طويلة. وحين يفتقدونك...

ـ سيستدعون الشرطة. ألم يخطر ببالك؟ ستغص الطرقات بهم قبل أن تتاح لك فرصة أن.. أن.. تفعل ما تضعه في ذهنك.. ربما نجوت في المرة الماضية.. ولكنك لن تُنجو بفعلتك مرتين.

التفت إليها ضاحكاً:

ـ راقبيني وأنا أنجو بها آنسة يورك... لقد خططت لأدق التفاصيل... وأنا عادة لا أترك للفرص يداً. وهذا ما تعرفينه جيداً. فهلاّ استرخيت قليلاً.

صاحت بشراسة:

ـ أف لفعالك كاميرون. دعك من هذا القول! أريد أن أعرف سبب اختطافي؟ ماذا تريد؟

أدار وجهه إليها، ولكنها لم ترَ بوضوح سوى عينيه.. هاتين العينين الفضيتين الباردتين بلهيبهما المشتعل في وجهه المظلل...

ـ أتريدين حقاً المعرفة؟

أهذا هو الرجل الذي وقعت في حبه؟ إنك مجنونة دون ريب فهو كما أسمته جوستين بارد كالثلج، بل هو أسوأ من ذلك. إنه مزيج من أعمال امتهنها كالجندية والجاسوسية. إنه رمز التعصب الرجولي.

ردت عليه بخوف هامس:

ـ لا.. أريد ألا أعرف شيئاً. أريد فقط أن تعيدني.

ـ ولكننا لن نعود.

إنها تعرف هذه اللهجة الصريحة الفولاذية، فأغمضت عينيها. فهي تعلم حين يبدو صادقاً إلى هذا الحد، أن لا مجال إلى تغيير رأيه. ومع ذلك عليها المحاولة. استدارت إليه وقالت بحذر:

ـ كاميرون.. أرجوك. اصغِ إلي.. أنت...

ـ اخرسي.

ـ اللعنة عليك كاميرون.!

ـ أنت تضجريني!

مد يده إلى المسجلة القابعة في السيارة أمامه لتتعالى منها ألحاناً صاخبة تصم الآذان.

فقالت:

ـ لا أستطيع سماع صوتي بسبب هذه الموسيقى الصاخبة. هلاّ أخفضت الصوت؟

ولكنه كان يريد بالضبط الصوت العالي إذ كانت كلما فتحت فمها رفع الصوت حتى عجزت أذناها أخيراً عن احتماله، فأطبقت عندئذ شفتيها وجلست بصمت فاتر.

لم يكن لديها فكرة عن المكان الذي يقصدانه. وكانت الظلمة والسرعة أفضل من تعصيب العينين.. نظرت إليه على ضوء السيارة الداخلي فرأته يجلس براحة مرتدياً ثياباً سوداء رغم الحرارة ووجهه يشير بما هو أدل من كلام، إلا أنه لن يقول لها ما تريد إلا حين يريد، ومتى يريد.. ولن يهتم البتة بتخويفه وترهيبه لها، أو بإبعادها عن ليلة

الزفاف.

جعلها ذكر الزفاف تبتسم راضية. فستيف كاميرون خبير الأمن الشهير لا يعرف حتى الآن أنه اختطف المرأة الخاطئة.. وأنه فعل هذا مرتين.. نظرت إليه بسرعة.. هيا.. امضِ بلعبتك أيها الكوماندوس! وانتظر حتى تصل إلى وجهتك لأنني عندها سأبوح لك بحقيقتي. سأقول لك إنك أحمق كبير! أسندت نفسها إلى المقعد.. أجل هذا سيتدبر أمر عجرفة السيد كاميرون. منذ بضعة أسابيع، كانت قلقة على مشاعره من الجرح، أما الآن فهي تفكر في ما يجعلها تدمره.

بينما كانت السيارة تتابع سباقها ليلاً عرفت تدريجياً المكان الذي ينقلها إليه.. إنها الڤيلا التي حملها إليها عندما خطفها من المطار.. هذه هي وجهته دون شك.

وهكذا كان. إذ انحرفت السيارة بحدة قبل أن ترتقي مرتفعاً يفضي إلى مجموعة من أشجار السرو العالية. لمس كاميرون شيئاً في السيارة، فانفتح باب الكراج..

قال بهدوء بعد أن أقفل باب السيارة من جهته:

ـ حسناً.. اخرجي.

ـ كاميرون للمرة الأخيرة.

ـ أرجو هذا.. فقد سئمت من الإصغاء إليك. هيا اخرجي حالاً.

صرّت على أسنانها بقوة، ثم ترجلت من السيارة. فلا فائدة من المجادلة وليس أمامها إلا اتباع أوامره. ربما فيما بعد، حين يتضاءل توتره قد تتجاهل أوامره.. أما الآن، فيجب أن تطيعه.

سارت أمامه إلى الباب وانتظرت حتى فتحه، وسبقها إلى المنزل المظلم الذي سرعان ما أضيء نوره مفاجئاً عينيها اللتين رمشتا. فأخذ يلعن بصوت منخفض، ثم لامس الزر مجدداً يضعّف قوة النور.

كانت غلاديس في المرة الماضية مذعورة ذعراً جعلها تتأمل ما حولها.. هي لا تنكر خوفها الآن، ولكنها كذلك مصممة على

الاستفادة من كل لحظة. تقدمت إلى الأمام ببطء، تدرس تفاصيل الغرفة بدقة، آملة إيجاد وسيلة سحرية للهرب.

ـ هل رضيت؟

كان صوته بارداً ساخراً. أحست معه غلاديس بضرورة إبعاد خوفها من الظهور أمامه، فقالت:

ـ ألهذا أحضرتني إليها؟ ألأبدي إعجابي بالديكور؟

رمى مفاتيحه إلى الطاولة قرب الباب، وقال دون اكتراث وهو يقطع الغرفة ليرفع الستائر:

ـ النوافذ جميعها زجاجية كالمرايا وهي ضد الكسر. المنظر المطل منها رائع غلاديس. بإمكانك الوقوف أمام النافذة ساعات دون أن تري شيئاً إلا حيوانات برية تمر أحياناً بسرعة.

ـ لا أدري لماذا تخبرني بهذا كله كاميرون.. أنا..

ـ بل تعرفين. كنت تتحققين من الغرفة وكأنك ابن عرس عالق في جحر ليس جحره، لذا وجدتني أحاول تبديد أوهامك. أما الباب فيستحيل أيضاً الخروج منه، ذلك أنني أقفلته إليكترونياً... هناك سلسلة من الأرقام يجب أن تعرفيها قبل أن تتمكني من فتحه، وقد تتوصلين إلى معرفتها.. ربما بعد مئة سنة.

لا تتركيه يرى خوفك غلاديس.

ـ حسناً.. لقد حصلت على ما تريد من لعب ومرح.. والآن أعدني إلى مدريد.

ارتسمت بسمة سريعة على وجهه:

ـ سيحدث هذا حين أكون مستعداً.

ارتفع رأسها عجرفة:

ـ كاميرون.. عليك أن تصغي إليّ.. هناك حقيقة إن ذكرتها تتمنى لو أنك لم تسمعها..

رد ببرود:

ـ غريب.. هذه كانت خطتي.

ـ عمَّ تتحدث؟ لن يكدرني أي قول قد تقوله.

ـ حقاً؟!

اتسعت عيناها تعجباً. يا الله.. هل سيقول لها إنه اختطفها طلباً للفدية؟ هذا هو الشيء الوحيد المعقول.

ـ لقد أسأت الحكم عليك حقاً كاميرون.

جالت عيناه بها حتى توقفتا على حركة صدرها، ثم قال بصوت أخفض من همس:

ـ أجل.. أجل.. لقد أسأت الحكم عليّ.

ابتلعت وجلاً مباغتاً حبس عنها أنفاسها.

ـ ما مقدار الفدية التي ستطلبها؟ (سألته)

ضاقت عيناه:

ـ فدية؟

قاطعته وهي تأمل أن تكون رابطة الجأش:

ـ هيا الآن كاميرون.. لست بلهاء... ولكنني دهشة لأنك قررت فجأة أن اختطاف الناس أكثر إفادة من حمايتهم.. أنا...

انحبست أنفاسها في حلقها لأنه دنا منها والغضب الأسود يطبق على وجهه. ارتدّت إلى الوراء مذعورة، ولكن يده أطبقت على معصمها وشدها إليه:

ـ أنت بالفعل لا تعرفين شيئاً عن اللعين الذي يسمى بالشرف، أليس كذلك؟

أرسلت رنة صوته المنخفضة موجات من الذعر إلى جسدها كله. كان وجهه قريباً منها، حتى أنها استطاعت رؤية عضلة تتحرك فيه:

ـ أتطلب الفدية اختطفتك؟

كانت أصابعه تضغط على شرايين رسغها فتؤلمها. غير أنها بقيت على موقفها:

ـ أنت قلت.. قلت إنك ستقول لي شيئاً سيكدرني.. وفكّرت.. تصورت...

ـ أيعلم خطيبك حقيقتك يا جوستين غلاديس يورك؟

ابتلعت ريقها:

ـ اسمع كاميرون.. لقد ارتكبت خطأً فادحاً...

ابتسمت عيناه دون فمه:

ـ صحيح؟

ـ أجـ.. أجل... أترى.. أنا لست.. لم أكن يوماً...

ـ لا.. لم تكوني يوماً.. وأتساءل ما إذا كان دان يعرف أنك امرأة تتلاعب بمشاعر الآخرين.

ـ ليس لدان علاقة بهذا... بما...

ـ كيف شكله غلاديس؟ إنه محام، هذا ما قالته المجلة. أليس كذلك؟

ـ أجل.. أعتقد هذا. فأنا...

رفع رأسه إليها:

ـ تعتقدين؟ ألا تعرفين؟

ـ إنه.. يعمل مع والده الذي يترأس شركات عدة يتولى هو النواحي القانونية منها. اسمع كاميرون.. لقد عرفوا دون ريب بأمر اختطافي، فهناك عشاء سيقام في منتصف الليل. ألا تعرف هذا؟

بدا اللهيب في عينيه وكأنه يحرق عينيها. وقال بهمس:

ـ لا أحد يعرف بأنني اختطفتك، أتعرفين هذا؟

ـ رجالك يعرفون. أليس كذلك؟ وإلا كيف تمكنت من التسلل إلى الحدائق؟

أرسلت بسمته قشعريرة وصلت إلى عظامها. ورد:

ـ قلت لك غلاديس.. أنا بارع في عملي.. بارع كل البراعة. ما من أحد يعرف أنني اختطفتك. قد أعرف ما أريد بك، ولن يعرف

أحد..

عجزت عن التنفس والبلع ولم تستطع إلا التحديق إلى وجهه والتساؤل عما فعلته حتى يكرهها هذا الكره كله. إنها تحمد الله لأنها لم تطلعه على الحقيقة ولكنها تذكرت قوله: لو وثقت بك وخذلتني...

إن كان هذا شعوره في الوقت الحالي فما سيكون شعوره حين يعلم أنها كذبت عليه وغشته منذ أن التقيا؟

مررت لسانها الجاف على شفتين أجفّ منه.. ثم همست:

ـ ما.. ماذا ستفعل بي؟

خفف ضغط أصابعه ثم راح يمرر إبهامه على رسغها وكأنه يداعبها. ثم قال بعد صمت:

ـ لست أدري.. لست أدري غلاديس.

وأخفض رأسه.. فقالت، تحاول التخلص منه:

ـ لا... لا.. كاميرون لا تفعل...

وأطبق عليها وكأنه يعاقبها بقسوة كادت تسلب منها أنفاسها...

حرقت الدموع جفنيها حين تذكرت آخر عناق كان لهما تلك الليلة في جبال سارقوسة.. تلك الليلة التي تركت فيها لخيالها العنان.

فجأة أحست أنها تغرق في بركة من نار سائلة كانت قد تعرفت إليها بين ذراعيه من قبل. فتعلقت به تهمس باسمه بينما كانت ذراعاه تطبقان عليها...

إلا أن كاميرون أبعدها عنه هامساً:

ـ يا الله!

حدقت إليه بعينين أوسعتهما الصدمة:

ـ ابتعد عني! أحذرك كاميرون.. أنا...

أخذت تضربه بقبضتي يدها حين حملها:

ـ اللعنة.. ماذا تفعل؟ كاميرون؟ كاميرون! إلى أين تحملني؟

ـ إلى مكان أتركك فيه حتى أقرر ما سأفعل بك.

رفس باباً، وضرب زر النور بمرفقه، ثم أوقفها:

ـ الزجاج مزدوج هنا كذلك. فلا تزعجي نفسك بمحاولة هرب.

نظرت بخوف إلى غرفة النوم التي تركها فيها كاميرون ليوصد الباب خلفه.

ـ كاميرون...

توقف لينظر إليها.. وقال:

ـ يبدو أن كلينا مريض.. فإما العزلة والحجر، وإما تدمير نفسينا.

وصفق الباب تاركاً إياها وحيدة.

ونامت.. لا تدري كم من الوقت قد نامت، ولكن حين فتحت عينيها أحست بصداع وتوتر، وهذا حتمي. ذلك أنها غفت على حافة السرير هكذا... تنشقت بعض الهواء ثم استوت جالسة وقد تذكرت كل ما جرى معها.

كانت بعد ذهاب كاميرون قد أسندت نفسها إلى الباب حتى وقعت أرضاً تنتحب من الإحباط وتجرّ نفسها جرّاً وصولاً إلى السرير الذي جلست عليه وهي عازمة على عدم الاستسلام إلى النوم.

ولكنها غفت، وهذا تصرف غريب منها. فثمة رجل مجنون في الخارج يترصد حركاتها. كان الوقت متأخراً والليل مظلماً وبارداً، فلفّت ذراعيها حول جسمها ترتعش برداً. هناك غطاء على الفراش، ملعونة هي إن استخدمته. لن تستخدم شيئاً يخص كاميرون المجنون ذاك.

هبطت كتفاها إلى الأسفل مهزومة. إنه ليس بمجنون. تعرف هذا. فليس من مجنون في الواقع سواها. انظروا إلى الطريقة التي تصرفت بها حين عانقها. أغمضت عينيها لذل الذكرى.. لم يكن ذاك عناقاً حقيقياً بمقدار ما هو غصب. ربما كان يحاول أن يخيفها. ربما أراد أن يحرجها ويذكرها بأنها تذوب بين ذراعيه كلما لمسها.

وقد حدث هذه المرة أن استسلمت لعناقه وتصرفت وكأنها تكاد

تغرق في فيضان النار العذبة التي التهبت في عروقها إثر لمسته...

كم الساعة الآن؟ نظرت إلى ساعة يدها فذعرت. إنها الخامسة صباحاً والزفاف في التاسعة. أراد دان أن تجري المراسم وقت الشروق إلا أن جوستين ضحكت وأصرّت على التاسعة صباحاً... إنها الآن لن تستطيع المشاركة وهي إن تمكنت من إقناع كاميرون لن تستطيع الانتهاء في الوقت المحدد. ذلك أن المسافة حتى ڤيلا آل يورك تقتضي ساعتين على الأقل. وماذا عن شعرها وزينتها؟

كبحت ضحكة مجنونة. لن يكون هناك زفاف. فكيف يقام العرس والشرطة تحدق بڤيلا آل يورك. ترى أيكونون قد اقتفوا آثار كاميرون؟ هذا إن ترك أثراً. ربما يحيطون بهذه الڤيلا الآن، وربما هم يوشكون على اقتحام المنزل، حاملين البنادق والمسدسات و...

الشرطة... بيد أنها لا تريد أن يقبض عليه الشرطة فهي ما تمنت ذلك حتى عندما اعتقدته قاتلاً مأجوراً. فكيف بها الآن؟ ترقرقت عيناها دمعاً.. يا الله.. ماذا دهاها؟ لقد أوقعها في حبه وهجرها، وها هو الآن يخطفها لسبب لا يعلمه إلا الله، ولكنها رغم كل ذلك تحبه. نعم تحبه وإن كان مصمماً على إيلامها.

عندما سمعت حركة في الباب هبت واقفة تتأمل كاميرون وهو يفتح الباب وقد أحاطت عينيه ظلال سوداء. نظرا إلى بعضهما بعضاً بصمت، ثم زفر نفساً حاداً.

ـ حسناً.. سأعيدك.

بدا وكأن ثقلاً أزيح عن قلبها فقالت تبتسم له عبر الدموع:

ـ شكراً لك. شكراً لك كاميرون.

ـ ليس بيدي حيلة. إنني لا أفهم لماذا أقدمت على خطفك من الڤيلا.

بدا متعباً، وتعساً جداً... فسحبت نفساً عميقاً، تكافح رغبة مفاجئة تحدوها إلى الاقتراب منه لتعانقه، ولكنها استعاضت من ذلك

بقولها:

ـ لا بأس عليك.. سنعود في الوقت المناسب لو أسرعنا.. ولن أخبر أحداً بما حدث..

ـ لن تخبري أحداً؟ ولكن يجب أن تخبري دان شيئاً، أليس كذلك؟ تباً غلاديس. سيطرح الرجل أسئلة كثيرة!

نسيت للحظة أنه ما يزال يظنها جوستين يورك.. ولكن ماذا ستكسب إن عرف الحقيقة، فابتسمت له تهز كتفيها:

ـ سأفكر في حجة ما.

ـ ستفكرين في حجة؟

هزت رأسها:

ـ أجل.. سأقول له إنني خرجت مع أصدقاء.. سأقول له إنني كنت مع.. مع..

وتلاشى صوتها فأشاحت وجهها بعيداً.

ـ سأقول له إنني كنت مع شخص مهم بالنسبة لي.

شهقت حين أطبقت يداه على كتفيها يديرها إليه بقوة قبل أن يجذبها إلى الأمام:

ـ وهل ستخبرينه بأنك تتلاعبين بمشاعر الرجال، وأنك تقولين لكل رجل «أحبك» أجيبي عن سؤالي.

نظرت إليه نظرة من لا يصدق ما يسمعه:

ـ لن يسألني شيئاً.

ـ ماذا تعنين بأنه لن يسألك؟

غدت عيناه الآن أكثر من جليدية.

ـ ألا يحبك؟ ألا يرغب في أن يعرف ما إذا كانت روحك وجسدك ملكه وحده؟

ـ كاميرون.. أرجوك.. أنت تؤلمني...

ولكنه صاح:

ـ ردي عليّ.. هيا غلاديس.. ردي! ألا يحبك الرجل الذي ستتزوجينه نصف ما أحبك؟

سمعت غلاديس في الصمت المفاجيء خفقات قلبها.. ونظرت إلى وجهه تحاول أن تعرف ماإذا كانت تحلم.. ثم همست:

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟

خرج منه صوت أجش:

ـ قلت.. إن على ابن الكلبة الذي سأعيدك إليه أن يحبك، وإلا قتلته. قولي له ما قلته عوضاً عني. قولي له غلاديس إنني قلت بأنني سأقتله إذا شككت يوماً في حبه لك.

ـ لأنك.. لأنك تحبني؟

ـ طبعاً أحبك.

أحنى رأسه إليها محدقاً:

ـ ألا تذكرين أنني تلك الليلة اعترفت لك بحبي وعندما جاء الصباح.. ولكن ما الفرق؟ اسمعي.. لقد تأخرنا.. وعلينا الانطلاق فوراً إذا أردت الوصول في الوقت المحدد.

هزت رأسها:

ـ لن أغادر هذا المكان قبل أن تفسر لي كلامك. ماذا حدث ذلك الصباح؟

ـ قلت لك إن الأمر لا يهم.

خلّل أصابعه في شعره متنهداً:

ـ كان هناك مجلات في السيارة، أتذكرينها؟ استيقظت ذلك الصباح، وبدأت بتحضير القهوة بينما كنت أنت نائمة في السرير كقطة صغيرة. يا للفظاعة! أعرف تماماً ما كان سيحدث لو دخلت الغرفة.. وكنت أعرف أن علينا الاتصال بمدريد.. فقررت أن ألزم جانب السلامة، فأخذت آخر أعداد المجلات.. وأظن أن إحداها كانت بتاريخ اليوم السابق، فأدخلتها إلى المطبخ لأقرأها.

منتديات رحيق الرواية

وصمت.. فتقدمت منه بلهفة، مع أنها في قرارة قلبها كانت تعرف:

ـ و...؟

ـ قرأت مقالاً يتصل بالشائعات، وبدأت بإبعادها، غير أن اسماً قفز أمام ناظري.. اسمك.. جوستين يورك تخطط للزواج.. ما يشبه هذا. قرأت المقال، ثم أعدت قراءته متأملاً صورتك التي التقطت أثناء وجودك في ملهى ليلي مع شخص اسمه دان...

تدفقت دموع السعادة من عيني غلاديس.. فهمست:

ـ كاميرون.. أرجوك.. يجب أن تصغي إلي...

ـ خرجت من غرفة النوم، ثم رحت تقولين لي إنك لم تكوني صادقة. ساعتذاك أردت أن أقتلك غلاديس. لم أصدق أن مشاعرك لا تشبه مشاعري.. يا الله، كان شعوري ذاك هو ما أردته طوال حياتي. ألم يعني لك حبي شيئاً؟

كان عليها أن تفهم أموراً كثيرة. لقد قرأ مقالة وظنها امرأة مخطوبة توشك على الزواج، ولكن هناك شيئاً مهماً في ما قاله، وهو أنه يحبها. كاميرون يحبها.. ستيف يحبها...

همست:

ـ أخبرني لماذا أحضرتني إلى ڤيلتك ستيف؟

ابتسم بمرارة:

ـ ومن يعلم؟ فأنا لم أخطط شيئاً قبل أن أقدم على ما فعلته. لقد كذبت في هذا الشأن. خطرت لي فكرة مجنونة بأن أغيّر رأيك بالنسبة لدان. وبقيت أقنع نفسي أنك تحبينني أنا، لا هوا

ـ ألأنني تجاوبت معك؟

ـ لأنك أعطيتني قلبك.. على الأقل هذا ما ظننته.

ابتسمت للمرة الأولى منذ أسابيع ابتسامة حقيقية:

ـ عمتي نونا لن تجادلك في هذا أبداً.

ـ يا إلهي.. أنا الآن أقل اهتماماً بعمتك غلاديس.

ـ كانت ستقف في صفك ستيف.. ولا أحسبها توافق على أن أتزوج دان.. كذلك.

نظر إليها بغرابة:

ـ لن توافق؟

ـ أظنها ستتمنى لو أتزوج بك.

سأل برقة متنهداً:

ـ أهذا ما سيكون عليه شعورها حقاً؟

ـ حسناً.. هي على الأقل قد تطلب مني الإمعان في دراسة طلبك. هذا إذا تقدمت بطلب.. هل ستطلب مني شيئاً؟

قطعت ابتسامة سريعة فمه فعبس:

ـ لا تتلاعبي بي.. حذرتك من هذا قبل الآن.

همست غلاديس برجاء خاص ثم قالت:

ـ لقد لعبت لعبة واحدة معك، وقد ندمت عليها منذ البداية. أتذكر ذلك الصباح حين شرعت أقول لك إنني لم أكن صادقة معك..

رفعت يديها ووضعتهما على صدره ثم أردفت:

ـ لم يكن لما باشرت في قوله علاقة بدان، فلم يكن هو خطيبي ولم يحدث أن كان لي خطيب. عليّ الآن أن أعترف بالحقيقة بالتطرق إلى صلب الموضوع مباشرة.

ـ اللعنة.. صلب الموضوع.

ـ ستيف.. أنا.. لست جوستين يورك.. هذا ما عنيته حين قلت إنني لم أكن صادقة معك.

ـ أنت لست جوستين يورك؟ من أنت إذن؟

ـ أنا غلاديس هاردويك، سكرتيرة جوستين.. لقد تبادلنا الشخصيات والجوازات وتذاكر السفر...

اشتد ضغط أصابعه على كتفيها:

ـ أكذبت علي طوال هذه المدة؟

ـ حين ظننتك خاطفاً خشيت الاعتراف بحقيقتي فقد اعتقدت أنك ستقتلني إن عرفت أن لا فدية ترتجى من خطفي.

هز رأسه وهو لا يصدق ما يسمع:

ـ ولكننا اتصلنا بآدم يورك في اليوم التالي، وتحدث إليّ قائلاً إن علي إبعادك عن الأنظار مدة أخرى ثم بعد ذلك تحدث إليك.

سقط رأسها إلى الأمام:

ـ إن هذا الجزء هوما يخجلني. لقد قال لي إن الصحافة لا تعرف أن جوستين وخطيبها في القيلا، وقال إن هذه السرية رائعة. ثم توسل إليّ أن.. أن أتابع تمثيل دور ابنته لأنك لن توافق أبداً على المضي في المشروع إن علمت الحقيقة...

ـ ووافقت على التمثيلية.

هزت رأسها:

ـ وافقت. ضع نفسك مكاني. جوستين هي صديقتي التي صوّر لي والدها أن تمثيلي هذا سيفيدها أشد الفائدة... ثم هنالك... سبب آخر... سبب كنت أخجل من الاعتراف به حتى لنفسي في البداية.

وضع ستيف يده تحت ذقنها، ورفع رأسها إلى الأعلى:

ـ ما هو؟

ـ أردت أن أبقى معك. ثم .. بعد أن عرفت أنني... بعد أن عرفت أنني وقعت في حبك، حاولت قول الحقيقة لك.. ولكن الشجاعة خانتني. خفت أن تنظر إلي نظرتك هذه الآن.

ـ ولماذا لم تخبريني بالحقيقة ذاك الصباح؟ كيف تركتني أعتقد أنك ملك رجل آخر؟

بللت الدموع أهدابها.

ـ ظننتك تود الخلاص مني.

اشتدت قساوة عينيه:

ـ أبداً.

ـ أجل.. أعرف هذا الآن... ولكن يومذاك. ما أشد أسفي؟

وأغمضت عينيها لئلا ترى الغضب في عينيه وأكملت هامسة:

ـ لن ألومك إن لم تسامحني. لقد وثقت بي، وخذلتك... ولهذا لم أستطع أن أخبرك الحقيقة.. ألا ترى هذا؟ لقد خذلتك...

أمسك وجهها بيديه:

ـ أحبك غلاديس. لم يحدث أن قلت هذا لامرأة أخرى غيرك. أتفهمين؟ أحبك حباً لم يعرفه أحد.

تساقطت الدموع على وجهها:

ـ ستيف.. يا حبي...

ابتسم لها:

ـ طبعاً. يجب أن أضعك على ركبتي لأعاقبك وأراهن أن عمتك نونا ستوافق على فعلي.

ضحكت غلاديس من خلال دموعها.

ـ ستوافق بكل تأكيد.

ـ أهناك حقاً عمة تدعى نونا أم أنها وليدة مخيلتك؟

ـ نعم هي موجودة. اعلم أن كل ما ذكرته كان صحيحاً إلا اسمي.

اشتدت ذراعاه حولها وهمس:

ـ أسمعيني أهم ما أريد سماعه في الدنيا.

تنهدت:

ـ أحبك.. وسأحبك إلى الأبد.

ـ يا للفوضى التي سببناها لنفسينا.

ـ هل سافرت حقاً إلى أفريقيا؟

ضحك:

ـ لقد أخرجت أحد أفضل رجالي من الطائرة في الدقائق الأخيرة لأنني أردت أن أغرق نفسي بعمل جديد. ولكنني لم أنجح.. فما إن

مكتبة الرحمة

اقترب موعد الزفاف حتى أصبحت شريراً، نكد المزاج فكان أن قررت بالأمس توديع أفريقيا قبل أن يقتلني أحدهم دفاعاً عن نفسه!

ـ ستيف.. لم تقل بعد ما إذا كنت قد غفرت لي.

قطب حاجبيه بعبوس قاتم:

ـ لست أدري.. يجب أن أفكر بعض الوقت.

ـ أجل.. أفهمك.

نظر إلى ساعته:

ـ يجب أن نتحدث عن الأمر لاحقاً، لأن علينا العودة إلى ڤيلا آل بورك قبل الزفاف.

هزت رأسها برفض:

ـ لن أتحرك من مكاني قبل أن أعرف.

تنهد ستيف:

ـ أنت أصعب امرأة مراساً يا غلاديس هاردويك. حسناً.. لا وقت لدينا للهرب. فها هو ردك إذن.. كيف لا أغفر لك وأنا أحبك. ألا تعلمين أنني سأتزوجك على أن أرى عمتك في أقرب وقت ممكن.

ثم أردف يقول ضاحكاً:

ـ هل لنا الآن أن ننطلق إلى مدريد؟

ابتسمت غلاديس:

ـ كم تستغرق الرحلة إلى مدريد؟

ـ حوالي الساعتين، فإن انطلقنا الآن نصل قبل موعد الزفاف بنصف ساعة.

التفت ذراعاها على عنقه وهمست:

ـ لدي ما هو أهم لقضاء نصف الساعة هذه.

وهذا ما كان عليه رأيه.

* * *